

من كتاب المختصر في أخبار البشر لعماد الدين اسماعيل
أبي الفداء

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزيك

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة في رمضان قتل ابو الغارات طلائع ابن رزيك الأرمني ، وزير العاضد العلوي جهزت عليه عمه العاضد من قتله وهو داخل في القصر بالسكاكين ، ولم يمت في تلك الساعة بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولا علم بذلك، وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها، وسأل العاضد أن يولي ابنه رزيك الوزارة ، ولقب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك في الوزارة

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك فولاه الصعيد، وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ابنه العادل ان لا يغير على شاور شيئا لعلمه بقوة شاور. ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل وطرد وراء شاور وأمسكه وقتله، وهو العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، وانقرضت بقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة، وتلقب بأمر الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن الضرغام جمع جمعا، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان فقوي على شاور، فانهزم شاور إلى

الشام مستنجدا بنور الدين، ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد، فضعفت الدولة بهذا السبب، حتى خرجت البلاد من أيديهم

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

وفي هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكي عسكرا مقدمهم أسد الدين شيركوه بن شاذي الى الديار المصرية ومعهم شاور، وكان قد سار من مصر هاربا من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده، وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها . إن أعاده إلى الوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر، فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاور إلى وزارة العاضد العلوي، ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشيء مما شرط، فسار شيركوه واستولى على بلبليس والشرقية، فأرسل شاور استنجد الأفرنج على إخراج أسد الدين شيركوه من البلاد، فسار الأفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر، وحصروا شيركوه ببلبليس، ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الأفرنج حركة نور الدين، وأخذ حارم، فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبليس بمن معه من العسكر، وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين.

وفي هذه السنة في رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من الأفرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والأفرنج انتصر فيه نور الدين، وقتل وأسر عالما كثيرا، وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمون شيئا كثيرا .

وفي هذه السنة أيضا في ذي الحجة سار نور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الأفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة إلى هذه السنة .

ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسةائة

وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الأفرنج

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسةائة

وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الأفرنج واستنجدهم وجمعهم وساروا في إثر شيركوه إلى جهة الصعيد، والتقوا على بلد يقال له البابين، فانهمز الأفرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والأفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر، فسار شيركوه إليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الاسكندرية ويعود إلى الشام، فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال من هذه السنة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل إلى دمشق في ثامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الأفرنج والمصريين على ان يكون للأفرنج بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

وفي هذه السنة فتح نور الدين صافيتا والعريمة، وفيها عصى غازي ابن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج ، فسير إليه عسكرا أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخوا غازي المذكور، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسةائة .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي، وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه، ولم يقدر نور الدين على أخذها إلا بعد أن أسر صاحبها وأحضره إلى نور الدين، واجتهد به على تسليمها فلم يفعل، فأرسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني وأردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر المعروف بابن الداية، وكان رضيع نور الدين، وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء، وما زالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل شاور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

وفي هذه السنة أعني سنة أربع وستين وخمسمائة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الأفرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهرا في مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها، وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها، فأحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الأفرنج وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما، فأرسل العاضد إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الأفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله، فرحلوا، وجهاز نور الدين العسكر مع شيركوه، وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتي ألف

دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته. وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم) (البقرة ٢١٦) ولما قارب شيركوه مصر رحل الأفرنج من ديار مصر على أعقابهم إلى بلادهم، فكان هذا لمصر فتحا جديدا، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالقلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يياطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وإيراد ثلث البلاد، ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعذه ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (النساء ١٢٠)، ثم ان شاور عزم على ان يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده في المخيم، وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاور وأعلماه برواح شيركوه إلى زيارة الشافعي، وساروا جميعا إلى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور وألقياه إلى الأرض عن فرسه، وأمسكاه في سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلاه، فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ذلك، وسمع العاضد الخبر فأرسل إلى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور، فقتله وأرسل إلى العاضد، ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر، وكتب له منشورا، أوله بعد البسملة: «من عبد الله ووليه أبي محمد الإمام

العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي عضد الله به الدين، وأمتع الله بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك.

إنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونسأله أن يصلي على محمد وآله الطاهرين، والأئمة المهديين ويسلم تسليماً ثم ذكر تفويض أمور الخلافة إليه، ووصايااً أضر بنا عنها للإختصار، وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور: « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الافتخار بأن اعتزت خدمتك الى النبوة »

ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها :
بالجد أدركت ما أدركت لا للعب
كم راحة جنيت من دوحه التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المدى في العلاما حزت بالخبب
ملكنت من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت اسد الدين العزيمة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

في شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقي :
لقد فاز بالملك العظيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطفى حتى لقد قال صحبه
على مثله أكان اللعين يدور
فلارحم الرحمن ترربة قبره .
ولا زال في منه منكرو نكير

أما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر، فكان آخر العهد
به .

ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله (حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة) (الأنعام ٤٤) وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من
جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسة ، فكانت ولايته شهرين وخمسة
أيام ، وكان شيركوه وأيوب ابنا شادي من بلد دوين .

قال ابن الأثير وأصلهما من الأكراد الروادية، فقصدوا العراق، وخرجا
بهروز شحنة السلجوقية ببغداد ، وكان أيوب أكبر من شيركوه، فجعله
بهروز مستحفظا قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكي من
عسكر الخليفة ، ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه، ثم ان شيركوه
قتل انسانا بتكريت، فأخرجها بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد
الدين زنكي وأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جميلة ، ولما ملك قلعة
بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد
موت زنكي سلمها أيوب لهم على إقطاعات كثيرة شرطوها له، وبقي
أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق ، وبقي شيركوه مع نور الدين محمود
بعد موت أبيه زنكي، وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من
شجاعته وزاده عليها، وجعله مقدم عسكره ، فلما أراد نور الدين ملك
دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب، فساعد أيوب نور الدين على

ملك دمشق، وبقياً مع نور الدين إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرنا

ولما توفي شيركوه، وكان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شادي، وكان قد سار معه على كره. قال صلاح الدين أمرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه بحضرته : يا يوسف تجهز للمسير، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية ما لا أنساه أبداً، فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقبل، فقال نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك ، فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، فكأنها أساق إلى الموت.

ولما مات شيركوه طلب جماعة من من الأمراء النورية التقدم على العسكر، وولاية الوزارة العاضدية، منهم : عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال المنبجي، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين، فأرسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، فلم يطعه الأمراء المذكورون، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري، فسعى إلى المشطوب حتى أماله إلى صلاح الدين ، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن اختك، وعزه وملكه لك فما ل إليه أيضاً، ثم فعل بالباقيين كذلك، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبتت قدم صلاح الدين على انه نائب نور الدين، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرد بكتاب بل يكتب إلى الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله،

فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله، فأرسلهم إليه نور الدين، فأعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر، وتمكن من البلاد، وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى.

قال ابن الأثير مؤلف كتاب الكامل : رأيت كثيرا ممن ابتدأ الملك ينتقل إلى غير عقبة ، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس، فانتقل الملك إلى عقب أخيه المنصور، ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن أحمد، فانتقل الملك إلى أخيه إسماعيل وعقبة، ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك إلى عقب أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغريل السلجوقي فانتقل ملكه إلى عقب أخيه ، ثم شيركوه ملك فانتقل الملك إلى ابن أخيه

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى أخيه العادل وعقبه، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب، وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولا، وأخذ الملك وعيون أهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك .

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان، فاجتمعت السودان، فهم حفاظ القصر، في عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين، انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلا وتهجيجا، وحكم صلاح الدين على القصر، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان خصيا أبيض، وبقي لا يجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين .

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسةائة

فيها سارت الأفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمة، فحصروها خمسين يوما، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام، فرحلوا عائدين على أعقابهم ولم يظفروا بشيء منها. قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مدة إقامة الأفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية، سوى الثياب وغيرها .

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه. وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام ، فقام نور الدين في عمارة الأسوار وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الأفرنج، فخافوا من نور الدين، واشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خربت من بلادهم

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود إلى أخيه الذي هو أصغر منه، وهو سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصرا به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة تقريبا، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا، وكان من أحسن الملوك سيرة

وفي سنة ست وستين

سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل وهي بيد أخيه غازي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر، فاستولى عليها نور الدين وملكها، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها، وأطلق المكوس منها، ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازي، وأعطى سنجار لعماد الدين وهو

أكبر من أخيه، فقال كمال الدين الشهرزوري: هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة أخيه سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف وتطمع الأعداء.

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من مصر فغزا بلاد الأفرنج قرب عسقلان والرملة، وعاد إلى مصر، ثم خرج إلى إيلة وحصرها، وهي للأفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها برا وبحرا وفتحها في العشر الأول من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها، وعاد إلى مصر .

ولما استقر صلاح الدين بمصر كان بمصر دار الشحنة تسمى دار المعونة يجبس فيها فهدمها صلاح الدين وبنها مدرسة للشافعية، وكذلك دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين، وكانوا شيعة ورتب قضاة شافعية، وذلك في العشرين من جمادى الآخرة، وكذلك اشترى تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين منازل العز، وبنها مدرسة للشافعية

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

وفيها ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر، أنه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي وكان خصيا أبيض، وبلغ نور الدين ذلك أرسل إلى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية وإقامة الخطبة العباسية، فراجع صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة، فلم

يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء، ويقطعوا خطبة العاضد فامثلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، وتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته

ولما توفي العاضد جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه، وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف، فمن ذلك الجبل الياقوت، وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا

قال ابن الأثير مؤلف الكامل: أنا رأيتُه ووزنته، ومما خكي أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب الانسان به ضرط فكسر، ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض، وأعتق البعض، وذهب البعض، وخلا القصر من سكانه، وكأن لم يكن بالأمس.

ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظن ذلك خديعة ولم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم لتخلفه عنه، وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والامر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسلاجسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة أعني سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنان وسبعون سنة تقريبا، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمرت. ولم تصف إلا وتكدرت. بل صفوها لم يخل من الكدر.

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد المذكور قد رأى في منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد، ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعى من يعبر الرؤيا وقص ما رآه عليه، فعبر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد فتقدم العاضد إلى والي مصر باحضار من بذلك المسجد، فأحضر إليه شخصا صوفيا يقال له نجم الدين الخبوشاني، فاستخبره العاضد عن مقدمه، وسبب مقامه بالمسجد المذكور، فخبره بالصحيح في ذلك، وراه العاضد أضعف من أن يناله بمكرهه، فوصله بهال وقال له: ادع لنا يا شيخ وأمره بالانصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية والقبض عليهم استفتى في ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا وصرح في خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام في ذلك، فصحت بذلك رؤيا العاضد .

وفي هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشة في الباطن: كان صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للأفرنج ثم رحل عنها خوفا أن يأخذه فلا يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر فتركه ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا فما الرأي؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده، وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك، وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل اكتب وقل لنور الدين إنه لو جاءني من عندك انسان واحد، وربط المندبل في عنقي وجرني إليك سارعت إلى ذلك، وانفضوا

على ذلك ، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال له: لوقصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله، ولكن إن أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسة

وفي هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية، ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة، ثم فتحها واستولى عليها، وملك كثيرا من بلاد إفريقية.

وفيها سار نور الدين إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واستولى على مرعش وبهسنا ومرزبان وسيواس فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لا أرضى إلا بأن ترد ملطية على ذي النون بن الداشمند، وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس، فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الداشمند

وفيها سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم، وهو بالقرب من الكرك ، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين، فرحل عن الكرك عائدا إلى مصر، وأرسل تحفا إلى نور الدين واعتذر بأن أباه أيوب مريض وخشي أن يموت، فتذهب مصر، فقبل نور الدين عذره في الظاهر وعلم المقصود.

ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه أيوب قد مات، وكان

سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذي المذكور، أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوق وحمل إلى قصره، وبقي أياما ، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وكان عاقلا حسن السيرة

ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب اليمن

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى النوبة فلم تعجبهم بلادها، ثم سيره في هذه السنة بعسكر إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينذاك انسانا يسمى عبد النبي، المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز توران شاه ووصل إلى اليمن وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر فيه توران شاه، وهزم عبد النبي، وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال توران شاه ، فهجم عدن وملكها وأسر ناشر أيضا ، واستولى توران شاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة لعبد النبي وكذلك من عدن.

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني

في هذه السنة في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فإنهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم ، فمنهم عبد الصمد الكاتب . والقاضي العويرس. وداعي الدعاة. وعمارة بن علي اليمني الشاعر الفقيه، وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق بأحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله

قصيدة منها:

رमित يادهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الخلي بالعطل
جدعت مارنك الأفتى فانفك لا
ينفك مأبون أهل الشين والخجل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل

وفي هذه السنة توفي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الشام، وديار الجزيرة، وغير ذلك يوم الأربعاء حادي عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة، وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود في الشام قبالة الأفرنج، ويسير هو بنفسه إلى مصر، فأتاه أمر الله الذي لامر له، وكان نور الدين أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه حسن الصورة، وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسة، وطبق ذكره الأرض وحسن سيرته وعدله، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي كثيرا من الليل فكان كما قيل: جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام، منها: دمشق، وحمص، وحمّة، وحلب، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلزال، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولا يتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده، وعمره احدى عشرة سنة، وحلف له العسكر بدمشق، وأقام بها، وأطاعه صلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضربت السكة باسمه، وكان المتولي لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد، المعروف بابن المقدم.

ولما مات نور الدين وملك ابنه الملك الصالح، سار من الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، وملك جميع البلاد الجزرية.

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

ثم دخلت سنة سبعين وخمسةائة

وفي أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد، يقال له الكنز، جمع كثير وأظهروا الخلاف على صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إليه عسكرا فاقتتلوا وقتل الكنز وجماعة معه، وانهمز الباقون.

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

في هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين بن أيوب: دمشق، وحمص، وحمّة، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته، وهو رئيس حلب، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكتبوا صلاح الدين، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة في

سبعائة فارس، ولم يلبث أن وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريجان فراسله صلاح الدين واستماله، فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال.

ولما ثبت قدمه، وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماة، وقلعة بارين، وسلمية وتل خالد، والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع فخر الدين ابن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فلأن قلاعها فيها ولاية لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين فإن قلعتها كانت له أيضا، ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة، فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية فامتنع في القلعة، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض إلا حفظ الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة، فاستحلفه جرديك على ذلك، وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصرا لحلب إلى مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الأفرنج على حمص، ونزل صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار

إلى حمص، فرحل الأفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادي والعشرين من شعبان من هذه السنة، ثم سار إلى بعلبك فملكها

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، وجعل مقدم الجيش أكبر أمراءه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة أيضا، فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب، وانضم إليهم عسكر حلب، وسار إلى صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين ييذل حمص وحماة وأن يقر بيده دمشق، ويكون فيها نائبا للملك الصالح، فلم يجيبوا إلى ذلك وساروا إلى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب، وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم، وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم في حلب، وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منهم فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من هذه السنة.

وفي العشر الأخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفراني، وكان فخر الدين المذكور من أكابر الأمراء النورية.

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسةائة

وفيهما عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بتل السلطان، فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين . وغيرهما وتمت على سيف الدين غازي الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوباً، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع، فثبته وزيره، وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم، وغنم ما فيها، وسار إلى بزاعه وحصرها وتسلمها، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال، وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة، وأسر ينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه، فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى عزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب الإسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه، فأمسك صلاح الدين الإسماعيلي، وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الإسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضاً، ونجا السلطان إلى خيمته مذعوراً وعرض جنده وأبعد من أنكره منهم، ولما ملك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح، وانقضت هذه السنة، وهو محاصر لحلب، فسألوه في الصلح فأجابهم إليه، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاهم شيئاً كثيراً وقال لها: ما ترومين؟ فقالت: أريد قلعة عزاز، وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان

- ١٠١١٣ -

إليهم، واستقر الصلح، ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنتين وسبعين.

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسةائة

وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصياف، فأرسل مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماة يسأله أن يسعى في الصلح فسأله الحارمي الصفيح عنهم فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل إلى مصر فإنه كان بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المنقطم،

ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة بمصر، وعمل بالقاهرة مارستان.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسةائة

وفي جمادى الأولى منها سار السلطان من مصر إلى الساحل لغزو الأفرنج، فوصل إلى عسقلان في الرابع والعشرين من الشهر فذهب وتفرق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالأفرنج قد طلعت عليه، فقاتلهم أشد قتال، وكان لتقي الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب، أول ما تكاملت لحيته،

فأمره أبوه تقي الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثرا كبيرا، وعاد سالما، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الأفرنج السلطان فمضى منهزما إلى مصر على البرية ومعه من سلم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشا شديدا، وهلك كثير من الدواب، وأخذت الأفرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون في الاغارات أسرى، وأسر الفقيه عيسى وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال الشيخ عز الدين علي بن الأثير، مؤلف الكامل: رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق، يذكر له الواقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي يخطريننا
وقد نهلت من المثقلة السمير

ويقول فيه: « لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه إلا لأمر يريد به سبحانه وتعالى »

وفي هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة في جمادى الأولى، وطمع الأفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته من الأفرنج، ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر، وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك في اللذات، مائلا إلى الراحة، ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال السلطان وهو مريض، واشتد حصار الأفرنج لحماة، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الأفرنج إلى ظاهر السور، وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي، وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام.

وفي هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين، وكان قد تغلب على الأمر، وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات من العذاب، وأصر أصحابه على الامتناع، ووصل الأفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصر و احارم مدة أربعة أشهر، فأرسل الملك الصالح مالا للأفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وقد بلغ أهلها الجهد، وبعد أن رحل الأفرنج عنها أرسل الملك الصالح إليها واستتاب بقلعة حارم مملوكا لأبيه اسمه سرخك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسةائة

وفي هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك، وكان السلطان قد أعطاه شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فأرسل السلطان وحصره ببعلبك، وطال حصارها، فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض، فعوض عنها وتسلمها السلطان وأقطعها أخاه

وفيهما كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء شديد، وفيها سير السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر إلى حماة، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص، وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل منهما ببلده.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسةائة

وفيهما سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الأفرنج عند مخاضة الأحزان

بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب، وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، فطمع فيه قليج وأرسل إليه عسكرا ليحصره، وكانوا قريب عشرين ألفا وسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان تقي الدين يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفا

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

في هذه السنة ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وأمه أم ولد أرمنية، وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما، وكان حسن السيرة، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار، بعد عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار، وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله، ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين أبو الفضل، وقبض في سابع ذي القعدة على ابن العطار، ونقل إلى التاج، وأخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة، فثارت به العامة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست تلك المغرفة في العذرة، ويقولون: وقع لنا يا مولانا، هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفي هذه السنة في ذي القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك، فطلب عوضها الإسكندرية، فأجابه السلطان إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار إليها فرخشاه وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسة

وفي هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية، وكان مرضه السل وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة، لا يدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغارا، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيمان.

وفي هذه السنة سار السلطان إلى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان ثم اصطلحوا فقصده صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقها .

وفيها توفي شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفا، يخرج كل ما يحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية، ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتي ألف دينار مصرية، فوفاهما أخوه صلاح الدين عنه لما وصل مصر في هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسة

وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم للإستيلاء على تلك النواحي الشرقية، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشي السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز إليه عسكريا مع جماعة من أمرائه فوصلوا إلى اليمن واستولوا عليه، وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان، وعلى زييد حطان بن كامل بن منقذ الكناني من بيت صاحب شيزر.

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله، وكان حلييا عفيف اليد والفرج واللسان، ملازما لأمرور الدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيباز من الموصل إلى حلب واستقر في ملكها، ولما استقر مسعود في ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار، فأشار قيباز بذلك

فلم يمكن مسعود إلا موافقته فأجاب إلى ذلك؛ فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى الشام

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسة

وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر إلى الشام، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأشد:

تمتع من شميم عرار نجد

فما بعد العشيّة من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه، وتكدر المجلس على الحاضرين، فلم يعد صلاح الدين بعدها إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان وأغار في طريقه على بلاد الأفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر من هذه السنة، ولما سار صلاح الدين إلى الشام اجتمعت الأفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهاز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتح وأغار على ما يجاوره من بلاد الأفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن

في هذه السنة سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز

الدين عثمان الزنجيلي قد عادا إلى ولايتها فإن الأمير الذي كان سيره السلطان نائبا إلى اليمن تولى وعزلهما، فعادت بين حطان وعثمان البتن قائمة، فوصل سيف الإسلام إلى زييد فتحصن حطان في بعض القلاع فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطان طلب دستوراً إلى الشام فلم يجبه إلا بعد جهد، فجهز حطان أثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع أثقاله، وأخذ جميع أمواله، وكان من جملة ما أخذ سيف الإسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهباً عينا، ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به، فأما عثمان الزنجيلي فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام، وسير أمواله في البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل مالعثان، وصفت بلاد اليمن لسيف الإسلام.

ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولى عليه من البلاد

في هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الأول ونزل قريب طبرية، وشن الغارات على بلاد الأفرنج مثل بانياس وجنين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق، ثم سار من دمشق إلى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين الدين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان ملوك تلك الأطراف واستمالهم، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وصار معه، ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة وأخذ صاحبها قطب الدين ينال بن حسان، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرقيسياء وماكسين وعربان والخابور واستولى على خابور جميعه، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة، ثم أقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين، وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيباز للحصار وشحنوها بالرجال والأسلحة، فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذة باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم، وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستتاب بها سعد الدين بن معين الدين من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين

ذكر غير من الحوادث

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين في تلك النواحي فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط، وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان، فعمر أسطولا في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفرا شجاعا، فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم، وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرههم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة حرسها الله تعالى، فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابع، فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقيين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعا كريما فاضلا وله شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية، فأرسل إلى دمشق شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور،

وفيها توفي بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي، ولد سنة خمس وخمسة، وهو الملقب قطب الدين، وكان إماما فاضلا في العلوم الدينية، قدم إلى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين، وكان السلطان يقرئها أولاده الصغار.

ذكر ما ملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسة

وفيهما ملك السلطان حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من محرم، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرأ أرسلان بن داوود بن سكران بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها، ثم سار إلى عنتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عنتاب إلى اسماعيل المذكور فبقيت معه إلى الآن، فحاصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره السلطان عليها وبقي في خدمة السلطان، ومن جملة أمراءه، ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكي، وطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب عليه، وقد ضجر من ذلك، وكره حلب لذلك، فأجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وانفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر من هذه السنة، فكان ينادي أهل حلب على عماد الدين المذكور: «يا حمار، بع حلب بسنجار». واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه، ولا يحتاج بحجة عن ذلك، ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الركي، قاضي دمشق، مدح السلطان بقصيدة منها:

بفتحكم حلباً بالسيف في صفر

مبشر بفتح روح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسة

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري بن أيوب أخو

السلطان الأصغر وكان كريما شجاعا طعن في ركبته فانفلقت فمات منها.

ولما استقر الصلح عمل عماد الدين زنكي دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم في سرورهم إذ جاءهم إنسان فأسر إلى السلطان بموت أخيه بوري فوجد عليه في قلبه وجدا عظيما وأمر بتجهيزه، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحدا ممن كان في الدعوة بذلك لثلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان يقول السلطان: ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم.

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح في تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الأفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى السلطان، فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها، وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان بن جندر

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة قبض عز الدين بن مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيباز.

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة فأغار على بيسان وحرقتها وشن الغارات على تلك النواحي، ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكرك، فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليه، ثم رحل عنها في منتصف شعبان، وسار معه أخوه، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائبا عنه موضع الملك

العادل، ووصل السلطان إلى دمشق، وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره إليها في شهر رمضان من هذه السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفي هذه السنة في أواخرها توفي شاه أرمن سكرمان بن ظهير الدين إبراهيم بن سكرمان القطبي صاحب خلاط، وقد تقدم ذكر ملك شاه أرمن المذكور في سنة إحدى وعشرين وخمسة، وكان عمر سكرمان لما توفي أربعاً وستين سنة، ولما مات سكرمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين، فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط وكان أكثر أهلها وماليك شاه أرمن متفقين معه، وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاه أرمن واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وخمسة حسبنا نذكر ان شاء الله تعالى.

ذكر غزو السلطان الكرك

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسة

وفيهما في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة، وكتب إلى مصر، فسارعت عساكرها إليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به وملك ربح الكرك وبقية القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق عميق وقصد السلطان طمه، فلم يقدر لكثرة المقاتلة، فجمعت الأفرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان إلا الرحيل فرحل عن الكرك وسار إليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الأفرنج جماعة ودخلوا الكرك، فعلم بامتناعه عليه وسار إلى نابلس ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر، ثم نزل إلى بسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين ثم عاد إلى دمشق.

وفي هذه السنة توفي شيخنا الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعيد أحمد، وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلم ينتظم حال، واتفق أنهما مرضا بدمشق، وطلبا المسير إلى العراق، وسارا في الحرفات بشير في السخنة، ومات صدر الدين شيخنا الشيخ بالرحبة، ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيباز من الحبس، وأحسن إليه.

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة

وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين، لا سيما وفيهن بنت نور الدين، وحاصر الموصل وضايقها، وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر من هذه السنة، فسار عن الموصل إلى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها.

وفي هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وأمد، وملك بعده ولده سكران، ولقب قطب الدين، وكان صغيرا، فقام بتدبيره القوام ابن سماق الأسعدي، وأحضر سكران إلى السلطان وهو نازل على ميفارقين فأقره على ما كان بيد والده، وأقام معه أميرا من أصحاب سكران المذكور.

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميفارقين

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميفارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفي، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى، ثم إن السلطان رجع عن قصد خلاط إلى الموصل فجاءته رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح، واتفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدا إلى حران، فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان : شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ما وراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل وما بيده، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضا واشتد به المرض حتى أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم. ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذي صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان.

وفي هذه السنة ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي فأصبح ميتا، قيل إن السلطان هو الذي دس عليه من سقاه سها لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشر سنة، وخلف صاحب حمص شيئا كثيرا من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران وأخذ أكثرها، ولم يترك إلا ما لا خير فيه .

ذكر نقل الملك العادل من حلب وإخراج الملك الأفضل ابن السلطان من مصر إلى دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسةائة

وفيها أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر، وأقطعه دمشق،
وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان كان نائب
عمه بمصر، وكان معه الملك الأفضل، فأرسل تقي الدين يشتكي من
الأفضل إنني لا أتمكن من استخراج الخراج، فإنني إذا أجزرت من
عليه الخراج وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأرسل السلطان
أخرج ابنه الأفضل من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي
الدين في الباطن فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر إذا
مات السلطان، ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده
العزیز عثمان بن السلطان نائبا عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من
مصر فقبل إنه توقف عن الحضور وقصد للحاق بمملوكه قراقوش
المستولي على بعض بلاد إفريقية وبرقة من المغرب، وبلغ السلطان ذلك
فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه فحضر، ولما حضر تقي
الدين إلى السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين
وجبل جور بجميع أعمالها، واستقر العادل والعزیز عثمان في مصر، ولما
أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها.

ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل

وفي هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن الدكز صاحب بلد
الجبيل، وهمدان، والري، وأصفهان، وأذربيجان، وأرانية وغيرها من البلاد،
وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان واسمه

عثمان، وكان السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله خطبة في بلاده، وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد، وجرت بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم، فأرسل العنيلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفروه الله به قتله بيده.

. ذكر غزوات السلطان وفتوحاته

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

وفيها جمع السلطان العساكر، وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية، وغنموا شيئا كثيرا.

ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان، ودخل في طاعة السلطان، فأسلمت الأفرنج إلى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه، فصار معهم واجتمع الأفرنج للقاء السلطان.

ذكر وقعة حطين وهي الواقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الأفرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان، فركب السلطان من عند طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقى الدين صاحب حماة فأفرج له وعطف عليهم ونجا القومص ووصل طرابلس، وبقي مدة يسيرة ومات غنبا، ونصر الله تعالى المسلمين، وأحدقوا بالأفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسرا، وكان من جملة من أسر ملك الأفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل وابن الهنفرى، ومقدم الداوية وجماعة من الاستبارية، وما أصيب الأفرنج منذ خرجوا إلى الشام في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته، وأحضر ملك الأفرنج، وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا، فسقى ملك الأفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرميين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الأفرنج، فسكن جاشه، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأسان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان، ثم أرسل إلى أخيه العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلانا والقبولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا، وأسروا أهل هذه الأماكن، وأرسل فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان، ثم سار الملك العادل بعد فتح

مجدل يابا إلى يافا وفتحها غنوة بالسيف ثم سار السلطان إلى تبين
ففتحها بالأمان ، ثم سار إلى ضيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان
ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، ثم سار إلى
بيروت فحاصرها وتسلمها في السابع والعشرين من جمادى الأولى
بالأمان وكان حضرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من جملة
الأسرى، فبذل جبيل بأن يسلمها ويطلق سراحه فأجيب إلى ذلك، وكان
صاحب جبيل من أعظم الأفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تكن
عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان وتسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينة إلى عكا وهي للمسلمين، ولم يعلم
المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو
بعكا يقترح أمرا بعد أمره، والملك الأفضل يجيب إلى ذلك المركيس إلى أن
هب الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، وكان وصول المركيس إلى صور
واطلاق الأفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وحملهم إلى صور
من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى زاحت عكا، وقوي الأفرنج
بذلك.

ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها
بالأمان سلخ جمادى الآخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة
والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك.

ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر،
وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال، ونقبوا السور، وطلب
الأفرنج الأمان فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، وقال لآخذها إلا بالسيف
مثل ما أخذها الأفرنج من المسلمين، فعادوه في الأمان، وعرفوه ما هم
عليه من الكثرة وأنهم إن أسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك القتال،
فأجابهم السلطان إلى ذلك وشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال

عشرة دنانير، وتؤدي النساء خمسة، ويؤدوا عن كل طفل دينارين، وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا، فأجيب إلى ذلك وسلّمت المدينة يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب، وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك، ولم يحملوا إلا القليل.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه، فسمع لذلك ضجة لم يعهد مثلها من الأفرنج بالتفجع والتوجع، وكان الأفرنج قد عملوا غربي المسجد الأقصى هريا ومستراحا، فأمر السلطان بإزالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه، وكان نور الدين محمود بن زنكي قد عمل منبرا بحلب تعب عليه مدة، وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل السلطان أحضر المنبر من حلب وجعله في المسجد الأقصى، وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعية.

ثم رحل السلطان إلى عكا ورحل منها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها، ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوال، فاتفق أن الأفرنج كبسوهم في الشواني، وأخذوا خمس شوان، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في آخر شوال، أول كانون الأول، وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقتة وأرسل إلى هونين وفتحها بالأمان

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار شمس الدين محمد بن المقدم بعد فتح القدس حاجا، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات، ولما أفاض أرسل إليه طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين، فقتل بينهم جماعة، وابن المقدم بمنع أصحابه من القتال، فجرح ومات شهيدا، ودفن بمقبرة المعلى.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فشتى السلطان في هذه السنة بعكا، ثم سار بمن معه وقصد كوكب وحمل على حمصاها أميرا يقال له قايياز النجمي، وسار منها في ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس بقدمه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام، وسار من دمشق منتصف ربيع الأول، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص فأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد وشن الغارات على بلاد الأفرنج، وسار من حصن الأكراد، فنزل على انطرسوس فوجد الأفرنج قد أخذوا أنطرسوس فسار إلى مرقية، فوجدهم قد أدخلوها أيضا، فسار تحت المرقب وهو للاستتارية فرجده لا يرام ولا لأحد فيه مطمع، فسار إلى جبلة ووصل إليها ثامن جمادى الأولى وتسلمها حالة وصوله، فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان فحصر القلعتين، ولما ملك السلطان اللاذقية سلمها إلى الملك المظفر تقي الدين فعمرها وحصن قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع

والغرامة عليها، كما فعل بقلعة حماة، ثم رحل السلطان عن اللاذقية في التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى صهيون فحاصرها وضايقتها، وطلب أهلها الأمان فلم يجيبهم إلا على أمان أهل القدس فيما يؤدونه فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملكوا حصن بلاطس وكان الأفرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه، وملكوا حصن العيد، وحصن الجماهريين، ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحتسنا بقلعة الشجر فحاصرها ووجدها منيعة وضايقتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرهينية وضايقتها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وعفى أثره، وكان في الحصن وفي الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا الكسوة والنفقة، ثم سار السلطان من الشجر إلى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام وداومها بالزحف وملكها بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها.

قال مؤلف الكامل ابن الأثير: كنت مع السلطان في مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكي ذلك عن مشاهدة، ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر، ثم سار إلى دريساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقتها وتسلمها بالأمان على شرط أن لا يخرج منها أحد إلا بشيابه فقط، وتسلمها تاسع عشر رجب، ثم سار عن دريساك إلى بغراس فحاصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دريساك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكية إلى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح، وبذل اطلاق كل أسير عنده، فأجابه السلطان إلى ذلك

واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم ملوك الأفرنج في هذه البلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس.

ولما فرغ السلطان من أمر هذه البلاد والهدنة، سار إلى حلب ثالث شعبان، وسار منها إلى دمشق وأعطى عماد الدين زنكي دستورا، وكذلك أعطى غيره من العساكر الشرقية وجعل طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربي، وكان مقبلا هناك، وكان من عباد الله تعالى الصالحين، وله كرامات ظاهرة، وكان مع السلطان أبو فليحة الأمير قاسم بن مهنا الحسيني صاحب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهد معه مشاهدته وفتوحاته، وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله، ودخل السلطان دمشق في شهر رمضان المعظم، فأشير عليه بتفريق العساكر ليرجوا ويستريحوا، فقال السلطان: إن العمر قصير والأجل غير مأمون، وكان السلطان لما سار إلى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها، وخلق أخاه العادل في تلك الجهات يباشر ذلك، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان، فأمر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسليمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد.

ثم سار السلطان من دمشق في منتصف رمضان إلى صفد فحصرها في ذي القعدة، وسير أهلها إلى صور، وكان اجتماع أهل هذه القلاع في صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين، ظهر ذلك فيما بعد، ثم سار السلطان إلى القدس فعيد فيه عيد الأضحى، ثم سار إلى عكا فأقام فيها حتى انسلخت السنة.

وفي هذه السنة أرسل قزل بن الدكر يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقي، ويحذره عاقبة أمره،

فأرسل الخليفة عسكرا إلى طغريل والتقوا ثامن ربيع الأول قرب همدان، فانهمز عسكر الخليفة، وغنم طغريل أموالهم، وأسر مقدم العسكر جلال ابن عبد الله وزير الخليفة.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون، وحضر إليه صاحب شقيف أرنون وبذل له تسلم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه، فلما بقي للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان اسم صاحب الشقيف أرناط، فقال له السلطان في التسليم فقال: لا يوافقني عليه أهلي، فأمسكه السلطان وبعثه إلى دمشق، فحبس

ذكر حصار الأفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثروا جمعهم حتى صاروا في عالم لا تحصى كثرته، وأرسلوا إلى البحر يبيكون ويستنجدون، وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضرب المسيح وقد ادماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن، ووصل من الأفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور، ونازلوها في منتصف رجب من هذه السنة، وضايقوا عكا واحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار إليهم السلطان ونزل قريب الأفرنج وقتلهم في مستهل شعبان، وباتوا على ذلك واصبحوا فحمل تقي الدين صاحب حماة من ميمنة السلطان على الأفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور، وانفتح الطريق إلى المدينة يدخل المسلمون ويخرجون، وأدخل السلطان إلى عكا عسكر نجدة، وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونه إلى العشرين من شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم موقعة عظيمة، فإن الأفرنج اجتمعوا وضربوا مع السلطان

مصاف، وحملوا على القلب فأزالوه، وأخذوا يقتلون في المسلمين الى أن بلغوا خيمة السلطان، وانحاز السلطان الى جانب وانضاف اليه جماعة، وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة، فحمل السلطان على الأفرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فأفنوهم قتلاً، وكان قتلى الأفرنج نحو عشرة آلاف نفس، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم الى طبرية وبعضهم وصل الى دمشق.

وجافت الارض بعد هذه الواقعة، ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج، فأشار عليه الامراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل الى عكا رابع عشر شهر رمضان الى الخروبة، فلما رحل تمكن الأفرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض، وفي تلك الحال وصل اسطول المسلمين من البحر مع حسام الدين لؤلؤ - وكان شهماً - فظفر ببطسة للأفرنج فأخذها ودخل بها الى عكا، فقويت قلوب المسلمين، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الى أخيه السلطان فقويت نفوس المسلمين بوصوله.

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها توفي بالخروبة الفقيه عيسى، وكان مع السلطان، وهو من أعيان عسكره، وكان جندياً فقيهاً شجاعاً، وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزي.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد إلى قتال الأفرنج على عكا، وكان الأفرنج قد عملوا ترب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعاً، جاؤوا بخشبها من جزائر البحر، وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقاتلة، وألبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها

النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكأبة، ووصلت إلى السلطان العساكر من البلاد .

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان، وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية، فسلط الله تعالى على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، ولم يصل مع ابن ملك الألمان إلى الأفرنج الذين على عكا غير قدر ألف مقاتل، وكفى الله المسلمين شرهم، وبقي السلطان والأفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى الآخرة، فخرجت الأفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل، وأزالوا الملك العادل عن موضعه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا مهن الأفرنج خلقا كثيرا، فعادوا إلى خنادقهم، وحصل للسلطان مغص فانقطع في خيمته، ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة لما قوي الشتاء، واشتدت الرياح أرسل الأفرنج المحاصرون عكا مراكبهم إلى صور خوفا عليها أن تنكسر، وانفتح الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البدل إليها، وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك لضعف البدل.

وفيها في ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما توفي أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك

وأضاف إليه شهر زور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد مظفر الدين، وهو حران والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين، وهو: حران والرها، وسمسياط والموزر، الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما في يده، وهو: ميافارقين، ومن الشام حماة، والمعرة، وسلمية ومنبج، وقلعة نجم، وجبله، واللاذقية، وبلاطنس وبكسراثيل.

ذكر استيلاء الأفرنج على عكا

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

واستمر حصار الأفرنج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانوا محاصرين لعكا، وهم كالمحصورين، من خارجهم من السلطان، واشتد حصارهم لعكا وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وطلب الأمان من الأفرنج على مال وأسرى يقومون بها للأفرنج، فأجابوهم إلى ذلك وصعدت أعلام الأفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، واستولوا على البلد بما فيه، وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنما نحبسهم ليقوموا بالمال، والأسرى، وصليب الصليب، وكتبوا إلى السلطان بذلك فحصل ما أمكن تحصيله من ذلك، وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك، فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين، ثم قتل الأفرنج منهم جماعة كثيرة، واستمر الباقون في الأسر.

وبعد استيلاء الأفرنج على عكا وتقرير أمرها رحلوا عنها مستهمل شعبان نحو قيسارية، والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم، ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالوا المسلمين عن موقفهم، ووصلوا إلى سوق المسلمين فقتلوا من السوق خلقا كثيرا، ثم سار الأفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون، فملكوها.

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة، لئلا يحصل لها ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تقليب أسوارها وتخريبها فدكها إلى الأرض، ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان، رحل

ثاني شهر رمضان إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد، ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمه بالنظرون ثامن شهر رمضان، ثم ترأس الأفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الأنتكتار، ويكون للملك العادل القدس، ولأمراته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الأفرنج من يافا إلى الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات، فلقوا من ذلك شدة شديدة، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال بينهم، فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور، وسار إلى القدس لسبع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمیر القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتردي به العسكر، فكان يجتمع عند العمال في اليوم الواحد ما يكفيهم عدة أيام .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملك المظفر قد سار إلى البلاد المرتجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران وغيرها، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه، واستولى على السويداء وحاني، والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد، ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد، فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفي به يوم الجمعة لإحدى عشر ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة، وأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملازكرد ووصل إلى حماة ودفنه بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة، مشهورة هناك،

وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس، ركننا عظيما من أركان البيت

الأيوبي، وكان عنده فضل وأدب، وله شعر حسن، واتفق في ليلة الجمعة التي توفي فيها الملك المظفر أن توفي حسام الدين محمد بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطا نسبه السلطان فيها الى العصيان، وكاد أمره يضمحل بالكلية، فراسل الملك المنصور عنه الملك العادل في استعطف خاطر السلطان، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع في الملك المنصور حتى أجابه السلطان، وقرر للملك المنصور حماة، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل، بعد أن شرط السلطان أن العادل ينزل عن كل ماله من الأقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء، ونصف خاصه بمصر، وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القدس، ولما استقر ذلك سار العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها، وعاد إلى خدمة السلطان في آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة، أعني سنة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته، فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء وأكرمه وأنزله في مقدمة العسكر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة في شعبان قتل قزل أرسلان، واسمه عثمان بن الدكز، وهو الذي ملك: أذربيجان، وهمدان، وأصفهان، والري بعد أخيه محمد ابن البهلوان، وكان قد قوي عليه السلطان طغريل السلجوقي وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره، ثم إن قزل أرسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل في بعض البلاد، وسار قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان

وتعصب على الشفعية، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم، وعاد إلى همدان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان ملتجئاً فأكرمه السلطان، وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة.

قال ابن الأثير: لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه، ترجل معز الدين، وترجل السلطان، ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان أيضاً، فقال بعض الحاضرين في نفسه: ما بقيت تبالي يا بن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي، ويصلح قماشك ابن أتابك زنكي.

وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردي الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب محبوساً، أمر بخنقة الملك الظاهر غازي، بأمر والده السلطان، قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين، ثم سافر إلى حلب وكان علمه أكبر من عقله، فنسب إلى انحلال العقيدة، وأنه يعتقد مذهب الفلاسفة، فأفتى الفقهاء بإباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه، واشتهر عنه، وكان أشدهم في ذلك زين الدين ومجد الدين ابنا جهيل.

حكى الشيخ سيف الدين الأمدى قال: اجتمعت بالسهروردي في

حلب فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعل ذلك يكون اشتهاً علمك وما يناسب هذا، فرأيت لا يرجع عما وقع في نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل، وكان عمره لما قتل ثمان وثلاثين سنة وله عدة مصنفات في الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات، وكتاب الهياكل، وحكمة الإشراق، وكان يزعم أنه يعرف السيمياء، وله نظم حسن.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة

وفيهما سار الأفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها في محرم، والسلطان بالقدس، وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

ذكر عقد الهدنة مع الأفرنج وعود السلطان إلى دمشق

وسبب ذلك أن ملك الأنتكتار مرض، وطال عليه البيكار، فكتب إلى الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى ذلك، ثم اتفق رأي السلطان على ذلك لطول البيكار، وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فأجاب السلطان إلى ذلك، واستقر أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الأنتكتار، بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لا يحلفون، ووقع السلطان بذلك، وحلف الكندھري ابن أخته وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ومعها جماعة من المقدمين، وأخذوا يد السلطان، واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر، والملك المنصور، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأبجد بهرام شاه بن

فرخشاہ صاحب بعلبک، والأمیر بدر الدین دلدرم الیاریوقی صاحب تل باشر، والأمیر سابق الدین عثمان بن الدایة صاحب شیزر، والأمیر سیف الدین علی بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمین الکبار، وعقدت الهدنة عامة فی البحر والبر، وجعلت مدتها ثلاث سنین وثلاثة أشهر أولها أیلول الموافق للحادی والعشرین من شعبان.

وكانت الهدنة علی أن یتقرر بید الأفرنج یافا وعملها، وقیساریة وعملها، وحیفا وعملها، وعکا وعملها، وأن تكون عسقلان خرابا، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعیلیة فی عقد هدنته، واشترط الأفرنج دخول صاحب أنطاکیة، وطرابلس فی عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرمة مناصفة بینهم وبین المسلمین، فاستقرت القاعدة علی ذلك.

ثم رحل السلطان إلی القدس فی رابع شهر رمضان وتفقد أحواله بتسدید أسواره، وزاد فی وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصندحنة یذکرون أن فیها قبر حنة أم مریم، ثم صارت فی الإسلام دار علم قبل أن یتملك الأفرنج القدس، ثم لما ملک الأفرنج القدس أعادوها کنیسة كما كانت قبل الإسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلی القاضی بهاء الدین بن شداد.

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارین لتخريب عسقلان، وأمر أن ینخرج من بها من الأفرنج، وعزم علی الحج والإحرام من القدس، وكتب إلی أخیه سیف الإسلام صاحب الیمن بذلك، ثم ثبطه الأمراء، وقالوا لا تعتمد علی هدنة الأفرنج خوفا من غدرهم فانتتمض عزمه عن ذلك.

ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضین من شوال إلی نابلس،

ثم إلى بيسان، ثم إلى كوكب، فبات بقلعتها، ثم رحل إلى طبرية، ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الأفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم سار منها إلى مصر.

ثم سار السلطان إلى بيروت ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت الحادي والعشرين من شوال، فأكرمه السلطان وفارقه في غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت مدة أربع سنين، وأقام العدل والإحسان بدمشق، وأعطى السلطان العساكر الدستور، فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لا لقاء بعده وسار إلى حلب، وبقي عند السلطان بدمشق ولده الأفضل والقاضي الفاضل، وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد إلى دمشق طالبا البلاد الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين، فوصل إلى دمشق في الحادي والعشرين من ذي القعدة وخرج السلطان للقاءه، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفي الأمير سيف الدين المشطوب بنابلس، وكانت إقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد ابن المشطوب وأميرين معه.

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وأخبار الذين تولوا بعده

في هذه السنة أعني سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، في منتصف شعبان توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة وهيبة عظيمة، وعدل وافر

وغزوات كثيرة، وكان له عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطرامن بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان قد أعطاه أبوه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية، وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أوامرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه جعله ولي عهده، ثم سار إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده، فخرج عسكر قيسارية لحربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة وبقي أبوه يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منهم واحد ينتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو، فقوى أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد، وسار معه إلى قونية فملكها وأخذها من ملكشاه، ثم سار إلى اقصر، واتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه بقليل فاستقر كيخسرو في ملك قونية وأثبت أنه ولي عهد أبيه، ثم إن ركن الدين سليمان أخوا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ست مائة ومثل بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان، فرجع كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك ابن سليمان وملك بلاد الروم جميعا، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم وبقي كذلك إلى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ثم توفي كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقياد ابن كيخسرو، وتوفي كيقياد سنة أربع وثلاثين

وستمائة، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو، وكسره التتر سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين، وعز الدين، فملكا معا مدة مديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة، وهرب أخوه عز الدين إلى القسطنطينية، وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنا لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه، وهو نائب للتتر على ما نذكره إن شاء الله تعالى

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم وقتل ما لا يحصى، وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان ابن ألكز، وكان قزل قد اعتقله حسبا تقدم ذكره في سنة سبع وثمانين وخمسة، وفيها توفي راشد الدين سنان بن محمد، وكنيته أبو الحسن صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام، وأصله من البصرة.

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسة والسلطان بدمشق على أكمل ما يكون من المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيذا، وغاب خمسة عشر يوما، وصحبتة أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه العادل وذاعا لا لقاء بعده، فمضى إلى الكرك، وأقام به حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق، وركب في يوم الجمعة خامس عشر

صفر وتلقى الحجاج ، وكان عادته أن لا يركب إلا وهو لابس كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم، ولم يلبس الكزاغند ، ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده قد حملوه معه، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنييع، ودخل إلى القلعة على الجسر، وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفر كسل عظيم، وغشيته نصف الليل حمى صفراوية، وأخذ المرض في التزايد وفصده الأطباء في الرابع، فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقتين فحصل له راحة، وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحا ، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة الثاني عشر من مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر، وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل ذكره بالشهادة، وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، أعني في الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل القاضي بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله إلى رحمة الله تعالى وكرامته، وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها، وصل إلى الناس عليه، ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضا فيها، وكان نزوله إلى جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور.

وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة

والده إلى أخيه العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الظاهر غازي بحلب وإلى عمه الملك العادل أبي بكر بالكرك،

ثم إن الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت دارا لرجل صالح، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسة، ومشى الملك الأفضل بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل ووضع قدام المنبر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام، وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيما.

وكان مولده السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسة، وكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة، وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريبا من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبتنا واحدة، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي بن يوسف، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسة، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين، وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منها، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر.

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهما، وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف دارا ولا عقارا.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس، وذلك غير

ما أطلقه من ثمن الخيل المصابة في القتال، فلم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به.

ولم يؤخر صلاة عن وقتها، ولا صلى إلا جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله، ولا يفضل يوماً على يوم، وكان كثير سماع الحديث النبوي، وقرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض الممليك بعضاً بسموزة فأخطأته، ووصلت إلى السلطان ووقفت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد بمجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فما ولع بشتم قط.

قال العماد الكاتب: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفواته الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق، وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحدته وسلطانته، ورزىء الإسلام بمشيد أركانه.

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وبيد

الملك خضر ابن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الملك الأفضل، ويبد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون منهم: سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس ابن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية، وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر، وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية.

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان، والمعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير، مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر.

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير في توزره، ومد الجزري بجزره، ولما اجتمعت أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال الى ذلك، وحصلت الوحشة بين الأخوين: الأفضل والعزيز.

وفي هذه السنة بعد موت السلطان قدم الملك العادل من الكرك الى دمشق، وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه الى بلاده التي وراء الفرات.

ذكر حركة عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى البلاد الشرقية التي بيد الملك العادل وعوده وموته

في هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود ابن مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر صاحب الموصل ملوك البلاد المجاورين للموصل يستنجدهم، ولذلك اتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجان وسار إلى جهة حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود اسهال قوي، وضعف فترك العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قايماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وقوي بعز الدين مسعود المرض وتوفي في السابع والعشرين من شعبان في هذه السنة، فكانت مدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، وكانت مدة ملك عز الدين مسعود للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان دينا خيرا كثير الإحسان، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القيم بأمره مجاهد الدين قايماز

ذكر قتل بكتمر صاحب أخلاط

في هذه السنة في أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب أخلاط، وكان بين قتله وبين موت السلطان صلاح الدين شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماته بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وفرح فرحا كثيرا وعمل تختا يجلس عليه، ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين، وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه الملك العزيز، فلم يمهله الله تعالى. وكان هذا بكتمر من عماليك ظهير الدين شاه أرمن وكان له خشداس اسمه هزار دیناری، وكان قد قوي وتزوج ابنة بكتمر، وطمع في الملك فوضع على بكتمر من

قتله، ولما قتل ملك بعده هزار ديناري خلاط وأعمالها واسم هزار ديناري المذكور آق سنقر، ولقبه بدر الدين، وجلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلاط فاشتره منه شاه أرمن سكرمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقيا له ولقبه هزار ديناري، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلاط بقي المذكور من أكبر الأمراء، وتزوج بنت بكتمر عينا خاتون، فلما قتل بكتمر خلف ولدا فأخذ هزار ديناري المذكور ولد بكتمر وأمه واعتقلها بقلعة إرزاس بموش، وكان عمر ابن بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين، واستمر بدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكة خلاط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسة، حسبما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

في هذه السنة شتى شهاب الدين الغوري في بر شاور وجهاز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم، وعاد منصورا ومؤيدا.

وفيها: توفي سلطان شاه بن أرسلان بن اطسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد ملك مرو وخراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة، وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسة.

وفيها: مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكث تارة حتى مات.

ثم دخلت سنة تسعين وخمسة

ذكر قتل طغريل وملك خوارزم شاه الري

كان طغريل بن أرسلان بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن

داود بن ميكائيل السلجوقي قد حبسه قزل أرسلان بن ألكز، وخرج طغريل من الحبس في سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة وملك همدان وغيرها، وجرى حرب بينه وبين مظفر الدين أزيك بن البهلوان محمد بن ألكز، وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزيك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن ابن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، فخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه، فسار خوارزم شاه تكش وملك الري، وذلك في سنة ثمان وثمانين، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه في سنة تسع وثمانين وخمسة مائة، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزانتة وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو، ولما دخلت سنة تسعين سار تكش إلى حرب طغريل السلجوقي، فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسله إلى بغداد فنصب بها عدة أيام وسار تكش، فملك همدان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع بعضها لماليكه ورجع إلى خوارزم، وهذا طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق هو آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم، وقد تقدم ذكر ابتداء الدولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بوية طغريل بك ابن ميكائيل بن سلجوق ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل ثم ابنه ملكشاه ابن ألب أرسلان، ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلاً فقامت بتدبير المملكة أم محمود ترکان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين، وملك أخوه بركيارق بن ملكشاه، ثم أخوه محمد بن ملكشاه، ثم ابنه محمود بن محمد المذكور، ثم ابنه داود بن محمود بن

محمد المذكور مدة يسيرة، ثم عمه طغريل بن محمد، ثم أخوه مسعود ابن محمد، ثم ان ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياما يسيرة، ثم أخوه محمد بن محمود، ثم بعد محمد المذكور اختلفت، العساكر وقام من بني سلجوق ثلاثة: أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور، والثاني سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وهو عم محمد المذكور، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد ابن السلطان ملكشاه، وكان ألكز متزوجا بأمر أرسلان شاه المذكور، فقوي عليها سليمان شاه واستقر في همذان في سنة خمس وخمسين وخمسة، ثم قبض سليمان شاه وقتل وكذلك سم ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصفهان في السنة المذكورة، أعني سنة خمس وخمسين وخمسة، وانفرد بالسلطنة أرسلان شاه بن طغريل ربيب ألكز، ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور في سنة ثلاث وسبعين وخمسة، وجرى له ما ذكرناه حتى قتله تكش في هذه السنة أعني سنة تسعين وخمسة وانقضت به الدولة السلجوقية من تلك البلاد.....

وفي هذه السنة — أعني سنة تسعين — استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابني السلطان صلاح الدين، فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق، فأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين، ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلا ونهارا، وأشاع ندماؤه أن عمه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه بالخفية فأنشده العادل:

ذات مـ _____ من دونها ستر

فقبل وصية عمه وتظاهر بذلك وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري يدبرها برأيه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك وأزال المنكرات وواظب على الصلوات، وشرع في نسخ مصحف بيده.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسة

وفيها: عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل فسار ونزل الفوار من أرض السواد من بلاد دمشق، فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه، فبادر العزيز العود إلى مصر بمن بقي معه من العسكر، وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحل العزيز عائدا إلى مصر رحل الملك الأفضل وعمه العادل ومن انضم إليهما من الأسدية، وساروا في إثر العزيز طالبين مصر فساروا حتى نزلوا على بلبيس وقد ترك فيها العزيز جماعة من الصلاحية، وقصد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه العادل عن ذلك فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه العادل أيضا من ذلك، وقال مصر لك متى شئت، وكاتب العادل العزيز في الباطن وأمره بإرسال القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابتهم لما رأى من فساد أحوالهم فدخل عليه الملك العزيز وسأله، فتوجه القاضي الفاضل من القاهرة إلى عند الملك العادل واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين، فأصلحا بينهما، وأقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ليقرر أمور مملكته وعاد الأفضل إلى دمشق.

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسةائة

وفيها: نقل الملك الأفضل أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة في صفر فكان مدة لبثه بالقلعة ثلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة وأموره مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثر شاكوه وقل شاكره.

ذكر انتزاع دمشق من الملك الأفضل

لما بلغ الملك العادل في مصر والملك العزيز اضطراب الأمور على الملك الأفضل، اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذ دمشق، وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه، فخرجوا وسارا من مصر، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين، وهو أحد أمرائه، وكان فلك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلك الدين بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه، وأتم العادل والعزيز السير حتى نزلا على دمشق، وقد حصنها الملك الأفضل فكتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه، وأنهم يسلمون المدينة إليه، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة، فدخل الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة، وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفيا في صندوق خوفا عليه من القتل، وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى مع أخيه الأفضل ومعاضدا له، فأخذت منه بصرى أيضا فلحق بأخيه الملك الظاهر، فأقام عنده بحلب وأعطى الأفضل صرخد، فسار إليها بأهله واستوطنها، ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان ثم سلم دمشق إلى عمه الملك العادل على حكم ما كان وقع عليه الإتفاق

بينهما، وتسلمها الملك العادل، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الإثنين تاسع شعبان، وكانت مدة ملك الملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهرا، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الأفضل بصرخند كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه العادل أبي بكر، وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مولاي إن أبابكر وصاحبه
عثمان قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقي
من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الإمام الناصر جوابه:
وإني كتابك يا بن يوسف معلنا
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبا وعليا حقه إذ لم يكن
بعد النبي له يشرب ناصر
فاصبر فإن غدا حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسة

ذكر وفاة سيف الاسلام

..... في هذه السنة في شوال توفي سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الاسلام كان ولده الملك العزيز اسماعيل بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه، وكانت وفاة سيف الاسلام بزبيد، وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشترى أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

في هذه السنة في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ابن أقر سنقر صاحب سنجار، والخابور، والرققة، وكان حسن السيرة متواضعا يجب أهل العلم، إلا أنه كان بخيلا شديد البخل، ومملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكي، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها: في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فاستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين محمد واستنجد بالملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين وعاد إلى الموصل، فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وتسلم نصيبين.....

وفيها: وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، وسار الملك العادل ونزل بتل العجول، وأتته النجدة من مصر، ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، ثم سار الملك العادل إلى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل الرجال المقاتلة، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل، وجعل إليه أمر الحرب والصلح، ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين خطلغ مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبى ابن تمرشاش بن إيلغازي بن أرتق، وليس ليولق أرسلان من الحكم شيء وإنما الحكم إلى مملوك والده البقش.....

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسةائة

ذكر وفاة العزيز صاحب مصر

في هذه السنة في منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم توفي الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يومسف بن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد، فركض خلف ذئب، فتقنطر وحم سابع المحرم في جهة الفيوم، فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت حماه، ثم توجه إلى القاهرة فدخلها يوم عاشوراء وحدث به يرقان وقرحة في المعى، واحتبس طبعه فمات في التاريخ المذكور، وكانت مدة مملكته ست سنين إلا شهرا، وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا، وكان في غاية الساحة والكرم والعدل، والرفق بالرعية، والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة، وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس، فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد، واتفقت الأمراء على إحضار واحد من بني أيوب ليقوم بالملك، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل، فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد، فأرسلوا إليه فسار محثا ووصل إلى مصر على أنه أتاك الملك المنصور بن الملك العزيز، وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهورا، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد ليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفرا متنكرا خوفا من أصحاب عمه الملك العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الأول، ثم سار

الملك الأفضل إلى القاهرة، فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبس التقاه العسكر، فتنكر منه فخر الدين جهاركس، وفارقه وتبعه عدة من العسكر، وساروا إلى الشام وكتبوا الملك العادل، وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يشير عليه بقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين؛ فبرز الملك الأفضل من مصر وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره إلى دمشق، فترك على حصار ماردين ولده الملك الكامل، وسار العادل وسبق الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل عليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان من هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره المدينة حتى وصل إلى باب البريد، ولم يمدهم العسكر فتكاثروا أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد، ثم تحاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد، وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ما سذكروه إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة على بارين

وفي شهر رمضان من هذه السنة قصد الملك المنصور صاحب حماة

بارين وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وحاصرها، وكان عز الدين ابراهيم مع الملك العادل محصورا معه بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق وانجرح الملك المنصور حال الزحف، ثم فتحها في التاسع والعشرين من ذي القعدة وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.....

وفي هذه السنة رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.....

وفي هذه السنة في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قايياز بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين أرسلان، حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قايياز عاقلا أديبا فاضلا في الفقه على مذهب أبي حنيفة، وبنى عدة جوامع وربط ومدارس.....

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسة

والملكان الأفضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر، وسببه أنه كان للملك الظاهر مملوك يجب اسمه أييك، ففقد ووجد عليه الملك الظاهر وجدا عظيما، وتوهم أنه دخل دمشق فأرسل من تكشف خبر، واطلع الملك العادل وهو محصور على القضية فأرسل إلى الظاهر يقول له ان محمود بن الشكري أفسد مملوكك وحمله إلى الأفضل أخيك فقبض الظاهر على ابن الشكري فظهر المملوك عنده، فتغير الظاهر على أخيه الأفضل وترك قتال العادل، وظهر الفشل في العسكر فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر، ثم سارا إلى رأس الماء ليقبها به إلى أن ينسلخ الشتاء، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسار في إثر الأفضل

إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر تفرقت عساكره في بلادهم لأجل الربيع فأدركه عمه العادل، فخرج الأفضل بمن بقي عنده من العسكر وضرب معه مصافا بالسايح فانكسر الأفضل وانهمز إلى القاهرة، ونازل العادل القاهرة ثمانية أيام فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعرض عنها ميفارقين وحاني وسمسياط، فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، وكان دخول العادل إلى القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة.

وقال ابن الأثير: كان دخول العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر فيها، وتوفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في سابع عشر ربيع الآخر، وقيل إن مولد القاضي الفاضل سنة ست وعشرين وخمسة فكان عمره نحو سبعين سنة، ثم سافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنه أتاك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة، ثم أزال الملك المنصور محمد المذكور واستقل العادل في السلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماة يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعين من ابن المقدم، فقبل الملك العادل عذره، وأمره برد بعين إلى ابن المقدم فاعتذر الملك المنصور عنها بقرها من حماة، ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضا عن بعين، فرضي ابن المقدم بذلك لأنها خير من بعين بكثير، وتسلمهما عز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وكان له أيضا فامية وكفر طاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم صاحب حلب بذلك،

وقصر النيل في هذه السنة تقصيرا عظيما حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعا.....

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسةائة

لما دخلت هذه السنة كان بالديار المصرية الملك العادل، وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر، وهو مجد في تحصين حلب خوفا من عمه الملك العادل، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل نائب أبيه بها، وبالشرق الملك ابراهيم ابن الملك العادل، وبميفارقين الملك الأوحده نجم الدين أيوب ابن الملك العادل.

وفي هذه السنة: توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، وصارت البلاد بعده وهي منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب، لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم، ولما استقر شمس الدين عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر صاحب حلب وحصرها وملك منبج، وعصى عبد الملك بن المقدم بالقلعة فحصره ونزل عبد الملك بالأمان، فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم، وبها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب من هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما آيس الملك الظاهر منه سار إلى المعرة، وأقطع بلادها، واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب، وكان معتقلا بها، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضر بهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع قراقوش فأمر الملك

الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم فضرب ضربا شديدا وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النقارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه ولم يسلم القلعة، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماة، وحاصرها لثلاث بقين من شعبان من هذه السنة، ونزل شمالي البلد، وشعث التربة التقوية وبعض البساتين، وزحف من جهة الباب الغربي، وقاتل قتالا شديدا، ثم زحف وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه، واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور وعلى مال يحمله إليه قيل إنه ثلاثون ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق، وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنها متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل، ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل، ويتسلمها الملك الأفضل، وتسلم دمشق حيثئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب، بحيث تبقى مصر للملك الأفضل، ويصير الشام جميعه للملك الظاهر، وكان قد تخلف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما: فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الملك الأفضل والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق، فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما، واشتدت مضايقة الأخوين الأفضل والظاهر لدمشق، وتعلق النقابون بسورها فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم إلي دمشق الآن، فقال له الأفضل: إن حريمي حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذه البلد لك فاجعله إلي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر من قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما كان لأجل

الأفضل، فقال لهم الأفضل: إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال،
وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجل أخي الملك الظاهر فأنتم
وإياه، فقالوا: إنما قتالنا لأجلك ونخلو عن القتال، وأرسلوا وصالحوا
الملك العادل، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق، وقد تفرقت
العساكر، فرحل الملك الظاهر عن دمشق في أول المحرم سنة ثمان
وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفي هذه السنة: أعني سنة سبع وتسعين توفي عماد الدين الكاتب
محمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني، وكان فاضلا في الفقه والأدب،
والخلاف، والتاريخ، وله النظم البديع، والنثر الفائق، وكتب لنور الدين،
ولصلاح الدين، وله التصانيف الحسنة منها: البرق الشامي، وخريدة
القصر، وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسة، وكان عمره نيفا وسبعين
سنة.....

وفيها: كان بمصر غلاء شديد بسبب نقص النيل، وفيها: كان بالجزيرة
والشام والسواحل زلزلة عظيمة فهدمت مدنا كثيرة.

وفيها: في رمضان توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
الحنبلي الواعظ المشهور وتصانيفه مشهورة، وكان كثير الوقعة في العلماء،
وكان مولده سنة عشر وخمسة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسة

في هذه السنة بعد رحيل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق كما
ذكرنا، قدم إليها الملك العادل، وكان قد سار ميمون القصري مع الملك
الظاهر فأقطعه اعزاز، وفيها: خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفا من
انتزاعها منه، وأقطع منبج بعد ذلك عماد الدين أحمد بن سيف الدين
علي بن أحمد المشطوب. وفيها أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد

ابن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل له تسليم فامية بشرط أن يعطي شمس الدين عبد الملك بن المقدم أقطاعا يرضاه فأقطعه الملك الظاهر الراوندان، وكفر طاب، ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسلم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان، فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وأبعده، فلحق ابن المقدم بالملك العادل فأحسن إليه.

وفيها: سار الملك العادل من دمشق ووصل إلى حماة ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل إلى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار بحلب، وراسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، ووقعت بينهما مراسلات، ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماة، وأخذت من الملك الظاهر أيضا قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران ومامعها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى وسيره إلى الشرق، وكان بميفارقين الملك الأوحى ابن الملك العادل، وبقلعة جعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن الملك العادل، ولما استقر الصلح بين الملك العادل والظاهر رجع الملك العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية، والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي هذه السنة أرسل السلطان الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف وأمره بحصار ماردنين فحصرها وضايقها، ثم سعى الملك الظاهر إلى الملك العادل في الصلح فأجاب إلى أن يحمل إليه صاحب ماردنين مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويخطب له ببلاده ويضرب بالسكة باسمه، ويكون بخدمته متى طلبه، فأجيب إلى ذلك، واستقر الصلح عليه.

وفيها أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز من مصر إلى الشام، فسار بوالدته وأخوته، وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر.

وفيها سار الملك المنصور صاحب حماة إلى بعيرين مرابطا للفرنج، وأقام بها وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بانجاده فأنجدها، واجتمعت الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرها وقصدوا الملك المنصور ببعيرين، واتقوا معه في ثالث شهر رمضان من هذه السنة واقتتلوا فانهمز الفرنج وقتل وأسر من خيلهم جماعة وكان يوما مشهودا.....

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاسبتار، وانضم إليهم جموع من السواحل واتقوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو نازل ببعيرين في الحادي والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوما، فانتصر ثانيا، وانهمزت الفرنج هزيمة شنيعة، وأسر الملك المنصور وقتل منهم عدة كثيرة.....

وفي هذه السنة ولد الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور محمد صاحب حماة من ملكة خاتون بنت السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب وسمي عمر، وإنما سمي محمودا بعد ذلك، وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر رمضان من هذه السنة.

وفي هذه السنة أرسل الملك العادل وانتزع ماكان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين، وسروج، وقلعة نجم، ولم يترك بيده غير سميساط فقط، فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماة ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل في ابقاء ماكان بيده، وتوجهت أم الملك الأفضل، وتوجه معها من حماة القاضي زين الدين ابن الهندي إلى الملك العادل فلم يجيبها الملك العادل ورجعت خائبة.

قال عز الدين بن الأثير مؤلف الكامل: وقد عوقب البيت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم السلطان صلاح الدين لما خرجت إليه نساء بيت الأتابك ومن جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن في إبقاء الموصل على عز الدين مسعود، فردهن ولم يجب إلى سؤالهن، ثم ندم رحمه الله تعالى على ردهن، فجرى للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع عمه مثل ذلك، ولما جرى ذلك أقام الملك الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب بلاد الروم.....

وفي هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها وقتلوا أهلها، وكانت هي وجميع أذربيجان للأمير أبي بكر بن البهلوان، وكان مشغولا ليلا ونهارا بشرب الخمر، ولا يلتفت إلى تدبير مملكته، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت.

وفيها. توفيت زمرد أم الخليفة الإمام الناصر، وكانت كثيرة المعروف.

ثم دخلت سنة ستمائة

والمملك العادل بدمشق وفيها كانت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج.

وفيها نازل ابن لاوون ملك الأرمن أنطاكية فتحرك الملك الظاهر صاحب حلب ووصل إلى حارم، فرحل ابن لاوون عن أنطاكية على عقبه.

وفيها خطب قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار للملك العادل ببلاده وانتمى إليه، فصعب على ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود وقصد نصيبين وهي لقطب الدين واستولى على مدينتها، فاستنجد قطب الدين بالملك الأشرف بن

العادل، فسار إليه واجتمع معه أخوه الملك الأوحى صاحب ميفارقين والتقى الفريقان بقرية يقال لها بوشره، فانهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل هزيمة قبيحة، ودخل إلى الموصل وليس معه غير أربعة أنفس، وكانت هذه الواقعة أول ما عرفت من سعادة الملك الأشرف ابن العادل، فإنه لم يهزم له راية بعد ذلك، واستقرت بلاد قطب الدين محمد بن زنكي عليه، ووقع الصلح بينهم في أول سنة إحدى وستائة.

وفيها اجتمع الفرنج لقصد بيت المقدس، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر، ونزل على الطور في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة.

وفيها استولت الفرنج على قسطنطينية، وكانت قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان، فلما كانت هذه السنة اجتمعت الفرنج وقصدتها في جموع عظيمة وحاصروها فملكوها وأزالوا يد الروم عنها، ولم تزل بأيدي الفرنج إلى سنة ستين وستائة فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج.

وفيها توفي السلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود ابن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن ييغو أرسلان بن سلجوق، سلطان بلاد الروم في سادس ذي القعدة حسبا قدمنا ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسة، وكان مرضه بالقولنج، وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية، وهي أنقرة، وكان ركن الدين المذكور يميل إلى مذهب الفلاسفة ويحسن إلى طائفتهم ويقدمهم، ولما مات ركن الدين ملك ولده قليج أرسلان بن سليمان، وكان صغيرا، فلم يستثبت أمره، وكان ما سذكره إن شاء الله تعالى

وفيها خرج أسطول للفرنج فاستولوا على مدينة فوه من الديار المصرية فنهبوا خمسة أيام، وفيها كانت زلزلة عظيمة عمّت مصر والشام

والجزيرة، وبلاد الروم، وصقلية، وقبرس، والعراق، وغيرها وخربت سور
مدينة صور.

ثم دخلت سنة إحدى وستائة

في هذه السنة كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج، وسلم إلى
الفرنج يافا، ونزل عن مناصفات لد، والرملة، ولما استقرت الهدنة أعطى
العساكر دستورا وسار العادل إلى مصر وأقام بدار الوزارة.

وفيها أغارت الفرنج على حماة، ووصلوا إلى قرب حماة إلى قرية الرقيطا،
وامتلأت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماة شهاب الدين بن
البلاعي، وكان فقيها شجاعا تولى بر حماة مرة، وسلمية أخرى، وحمل إلى
طرابلس فهرب وتعلق بجبال بعلبك، ووصل إلى أهله بحماة سالما، ثم
وقعت الهدنة بين الملك المنصور صاحب حماة وبين الفرنج، وفيها بعد
الهدنة توجه الملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وكان عنده استشعار
من السلطان الملك العادل، فلما وصل إليه بالقاهرة أحسن إليه إحسانا
كبيرا، وأقام في خدمته شهورا ثم خلع عليه وعلى أصحابه، وعاد إلى حماة.

وفيها ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان بلاد
الروم، وكان لما تغلب أخوه ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان على
البلاد قد هرب كيخسرو المذكور إلى الملك الظاهر صاحب حلب، ثم
تركه، وسار إلى قسطنطينية فأحسن إليه صاحبها، وأقام بالقسطنطينية إلى
أن مات أخوه ركن الدين سليمان، وتولى ابنه قليج أرسلان، فسار
كيخسرو من قسطنطينية وأزال أمر ابن أخيه، وملك بلاد الروم، واستقر
أمره.

وفيها؛ كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسيني أمير مكة، وبين الأمير
سالم بن قاسم الحسيني، أمير المدينة وكانت الحرب بينهما سجالا.

ثم دخلت سنة اثنتين وستائة

والملك العادل بالديار المصرية والممالك بحالها.....

في هذه السنة توفي الأمير مجير الدين طاشتكين أمير الحاج، وكان قد ولاه الخليفة على جميع خورستان، وكان خيرا صالحا، وكان يتشيع وفيها تزوج ابو بكر بن البهلوان بابنة ملك الكرج، وذلك لاشتغاله بالشرب عن تدبير المملكة، فعدل إلى المصاهرة والهدنة، فكف الكرج عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستائة

في هذه السنة سار الملك العادل من مصر إلى الشام، ونازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى، ثم وصل إلى دمشق، ثم سار منها ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس، واستدعى بالعساكر فأتته من كل جهة، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان، ثم سار ونازل حصن الأكراد، وفتح برج أعزاز وأخذ منه سلاحا ومالا، وخمسائة رجل، ثم سار ونازل طرابلس ونصب عليها المجانيق، وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، ثم عاد في أواخر ذي الحجة إلى بحيرة قدس بظاهر حمص.....

وفيها في ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية - باللام - وهي مدينة للروم على ساحل البحر. وفيها قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر، وكان أتاك قتلغ مملوك شاه أرمن فقبض عليه ابن بكتمر، فثارت عليه أبواب الدولة وقبضوه، وملكوا بلبان مملوك شاه أرمن ابن سقمان صاحب خلاط حسبما تقدم ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

والملك العادل نازل على بحيرة قدس، ثم وقع الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها.

ذكر استيلاء الملك الأوحده نجم الدين أيوب ابن الملك العادل على خلاط

في هذه السنة ملك الملك الأوحده أيوب ابن الملك العادل خلاط، وكان صاحب خلاط بلبان حسبا قدمنا ذكره في سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فسار الملك الأوحده من ميفارقين وملك مدينة موش، ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط، فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي، فسار طغريل شاه واجتمع به بلبان فهزما الملك الأوحده، ثم غدر طغريل شاه بلبان فقتله غدرا ليملك بلاده، وقصد خلاط فلم يسلموها إليه، وقصد مناكرد فلم تسلم إليه، فرجع طغريل شاه إلى بلاده فكاتب أهل خلاط الملك الأوحده، فسار إليهم وتسلم خلاط وبلادها بعد إياسه منها واستقر ملكه بها.

وفي هذه السنة لما استقر الملك العادل بدمشق وصل إليه الشريف من الخليفة الإمام الناصر صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردي، فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ، والتقاء إلى القصير، ووصل من صاحبي حلب وحماة ذهب لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة، فلبسها الملك العادل، ونثر ذلك الذهب، وكان يوما مشهودا، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب، وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وتطوق به الملك العادل، وسيف جميع قرابه ملبس ذهبا تقلد به، وحصان أشهب بمركب ذهب ونشر على رأسه علم أسود

مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة، ثم خلع رسول الخليفة على كل واحد من الملك الأشرف، والملك المعظم ابني الملك العادل عمامة سوداء وثوبا أسود واسع الكم، وكذلك على الوزير صفى الدين بن شكر، وركب الملك العادل وولده ووزيره بالخلع، ودخل القلعة، وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه، وخوطف الملك العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين، ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر فخلع على الملك الكامل بها، وجرى فيها نظير ماجرى في دمشق من الاحتفال، ثم عاد السهروردي إلى بغداد مكرما معظما.

وفي هذه السنة اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق، وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها.....

ثم دخلت سنة خمس وستائة.

والملك العادل بدمشق وعنده ولداه الملك الأشرف والمعظم

ذكر قدوم الأشرف إلى حلب متوجها إلى بلاده الشرقية

وفي هذه السنة توجه الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل من دمشق راجعا إلى بلاده الشرقية، ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر، وأنزله بالقلعة وبالغ في إكرامه، وقام للأشرف وجميع عسكره بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلوى والعلوفات، وكان يحمل إليه في كل يوم خلعة كاملة، وهي غلالة وقباء وسراويل وكمة وفروة، وسيف وحصان ومنطقة ومنديل وسكين ودلكش، وخمس خلع لأصحابه، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يوما، وقدم له تقدمه وهي مائة ألف درهم، ومائة بقجة مع مائة مملوك فمنها عشر بقج في

كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس، وثوبان خطاي، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير، ومنها عشر في كل واحدة منها عشرة أثواب عتابي خوارزمي، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير، ومنها عشر في كل واحدة خمسة أثواب عتابي بغدادي وموصلي، وعليها عشرة جلود قندس صغار، ومنها عشرون في كل واحدة خمس قطع مرسوسي ودبقي، ومنها أربعون في كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام، وحمل إليه خمس حصن عربية بعدتها، وعشرين اكديشا، وأربعة قطر بغال، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة، وقطارين من الجمال، وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده.

وفي هذه السنة أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حيلان إلى حلب، وغرم على ذلك أموالا كثيرة وبقي البلد يجري الماء فيه، وفي هذه السنة، وصل غياث الدين كيسخرو بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم إلى مرعش، لقصد بلاد ابن لاوون الأرمني، وأرسل إليه الملك الظاهر نجدة، فدخل كيسخرو إلى بلاد ابن لاوون، وعاث فيها ونهب وفتح حصنا يعرف بفرقوس.

ذكر مقتل صاحب الجزيرة

في هذه السنة قتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن عماد الدين بن زنكي بن آق سنقر صاحب جزيرة ابن عمر، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة ست وسبعين وخمسة مائة قتله ابنه غازي، وكان سنجر شاه ظالما قبيح. السيرة جدا لا يتمنع عن قبيح يفعله من القتل، وقطع الألسنة والأنوف والآذان وحلق اللحى، وتعدى ظلمه إلى أولاده وحريمه، فبعث ابنه محمودا ومودودا إلى قلعة فحبسها فيها، وحبس ابنه المذكور غازي في دار في المدينة، وضيق عليه، وكان بتلك

الدار هوام كثيرة فاصطاد غازي المذكور منها حية وأرسلها إلى أبيه في منديل لعله يرق عليه فلم يزد ذلك إلا قسوة، فأعمل غازي الحيلة حتى هرب، وكان له واحد يخدمه فقرر معه أن يسافر ويظهر أنه غازي بن معز الدين سنجر شاه ليأمنه أبوه فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطي شيئاً وسافر منها، واتصل ذلك بسنجر شاه فاطمأن، وتوصل ابنه غازي حتى دخل إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراري أبيه، وعلم به جماعة منهم، وكتبوا ذلك عن سنجر شاه لبغضهم فيه، واتفق أن سنجر شاه شرب يوماً بظاهر البلد وشرع يقترح على المغنين الأشعار الفراقية، وهو يبكي، ودخل داره سكران إلى عند الحظية التي ابنه مخبأ عندها، ثم قام معز الدين سنجر شاه ودخل الخلاء فهجم عليه ابنه غازي فضربه أربعة عشرة ضربة بالسكين، ثم ذبحه وتركه ملقى، ودخل غازي الحمام وقعد يلعب مع الجواري، فلو أحضر الجند واستحلفهم في ذلك الوقت لتم له الأمر، وملك البلاد، ولكنه تنكر واطمأن، فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار فجمع الناس وهجم على غازي وقتله، وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجر شاه، ولقب معز الدين بلقب أبيه، ووصل معز الدين محمود بن سنجر شاه بن زنكي، واستقر ملكه بالجزيرة، وقبض على جواري أبيه فغرقهن في دجلة، ثم قبض محمود بعد ذلك أخاه مودوداً.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في هذه السنة سار الملك العادل من دمشق، وقطع الفرات، وجمع العساكر والملوك من أولاده، ونزل حران ووصل إليه بها الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، صاحب آمد وحصن كيفا، وسار الملك العادل من حران، ونازل سنجار، وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي فحاصرها، وطال الأمر في ذلك، ثم خامرت العساكر التي صحبة الملك العادل،

ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح معه، فرحل عن سنجار، وعاد إلى حران، واستولى الملك العادل على نصيبين، وكانت لقطب الدين محمد المذكور، وكذلك استولى على الخابور.

وفي هذه السنة توفي الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين.....

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

وفيهما عاد السلطان الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق، وفيها قصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الأوحده ابن الملك العادل بها، واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر فحسن له السكر أنه تقدم إلى خلاط في عشرين فارساً، فخرج إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيراً، وحمل إلى الملك الأوحده، فرد على الملك الأوحده عدة قلاع، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ومائة ألف دينار، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة، وشرط أن يزوج ابنته بالملك الأوحده، فتسلم ذلك منه، وأقام وتحالفا وأطلق.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل في آخر رجب، وكان مرضه قد طال، وملك الموصل سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً، ولما اشتد مرضه انحدر إلى العين القيارة ليستحم بها، وعاد إلى الموصل في سيارة فتوفي في الطريق ليلاً، وكان أسمر حسن الوجه قد أسرع إليه الشيب، وكان شديد الهيبة على أصحابه، وكان عنده قلة صبر في أموره، واستقر في ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن

أرسلان شاه بن مسعود، وكان عمر القاهر عشر سنين، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لولو، وكان لولو مملوك والده أرسلان شاه وأستاذ داره، وهذا لولو هو الذي ملك الموصل على ماسنذكره إن شاء الله تعالى، وكان لأرسلان شاه ولد آخر أصغر من القاهر اسمه عماد الدين زنكي ملكه أبوه قلعتي العقر وشوش، وهما بالقرب من الموصل.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة، ويلبسوا له سراويلها، وأن ينتسبوا إليه في رمي البندق، ويجعلوه قدوتهم.

وفيها سار الملك العادل بعد وصوله إلى دمشق، ومقامه إلى الديار المصرية، وأقام بدار الوزارة.

وفيها توفي فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم.

ذكر وفاة الملك الأوحده صاحب خلاط

في هذه السنة توفي الملك الأوحده أيوب بن الملك العادل، فسار أخوه الملك الأشرف وملك خلاط، واستقل بملكها مضافا إلى ما بيده من البلاد الشرقية، فعظم شأنه ولقب شاه أرمن.

وفي هذه السنة قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم، وقتله ملك الأشكري، وملك بعده ابنه كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان، حسبها تقدم ذكره في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

في هذه السنة قبض الملك المعظم عيسى بن الملك العادل على عز الدين سامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون، بأمر أبيه الملك العادل، وحبسه في الكرك إلى أن مات بها، وحاصر القلعتين المذكورتين، وتسلمها من غلمان سامة وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها فخربت وبقيت خرابا، وأبقى عجلون وانقرضت الصلاحية بهذا سامة، وملك الملك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس وماعها لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وأعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي.

وفي هذه السنة عاد الملك العادل إلى الشام وأعطى ولده الملك المظفر غازي الرها مع ميفارقين.

وفيها أرسل الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل، فاستعطف خاطره، وخطب ابنته ضيفة خاتون ابنة الملك العادل، فزوجها من الملك الظاهر، وزال ماكان بينهما من الاحن.....

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

في هذه السنة في المحرم عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل، وكان المهر خمسين ألف دينار، وتوجهت من دمشق في المحرم إلى حلب فاحتفل الملك الظاهر لملتقاها، وقدم لها أشياء كثيرة نفيسة.

وفيها عمر الملك العادل قلعة الطور، وجمع لها الصناعات من البلاد والعسكر حتى تمت.

وفي هذه السنة سار طغريل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كيكافوس بسيواس، فاستنجد كيكافوس بالأشرف بن العادل، فخاف عمه طغريل ورحل عنه، وكان لكيكافوس أخ اسمه كيقباز، فلما جرى ما ذكرناه سار كيقباز واستولى على أنكورية من بلاد أخيه كيكافوس، فسار كيكافوس وحصره وفتح أنكورية وقبض أمرائه وحلق لحاهم ورؤوسهم، وأركب كل واحد منهم فرسا وأركب قدامه وخلفه قحبتين ويبد كل منها معلاق تصفعه به، وبين يدي كل واحد منهم مناد ينادي هذا جزاء من خان سلطانهم.

ثم دخلت سنة عشر وستائة

في هذه السنة ظفر عز الدين كيكافوس بن كيخسرو صاحب بلاد الروم بعمه طغريل شاه، فأخذ بلاده وقتله وذبح أكثر أمرائه، وقصد قتل أخيه علاء الدين كيقباز، فشفع فيه بعض أصحابه فعفا عنه.

وفيهما في رمضان توفي بحلب فارس الدين ميمون القصري، وهو آخر من بقي من كبراء الأمراء الصلاحية، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء بمصر، كان قد أخذ السلطان صلاح الدين من هناك وفيها ولد للملك الظاهر من ضيفة خاتون بنت الملك العادل ولده الملك العزيز غياث الدين محمد.....

ثم دخلت سنة إحدى عشر وستائة

في هذه السنة توفي دلدرم بن ياروق، صاحب تل باش، وولي تل باش بعده ابنه فتح الدين.....

وفيهما أسرت التركمان ملك الأشكري، وهو قاتل غياث الدين كيخسرو فحمل إلى ابنه كيكافوس بن كيخسرو، فأراد قتله فبذل له في

نفسه أموالا عظيمة، وسلم إلى كيكائوس قلاعاً وبلاداً لم يملكها المسلمون قط.

وفيهما عاد الملك العادل من الشام إلى مصر.....

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

ذكر وفاة الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب.

ولما كانت صبيحة يوم السبت وهو الخامس والعشرون من جمادى الأولى من هذه السنة. ابتدأ بالملك الظاهر المذكور حمى حادة، ولما اشتد مرضه أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز، ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازي، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين، وحلف الأمراء والأكابر على ذلك، وجعل الحكم في الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم، وأعدق به جميع أمور الدولة، وفي الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظاهر خضر المعروف بالمشمر كفر سوداء، وأخرج من حلب في ليلته بالتوكيل، وأخرج علم الدين قيصر الملك الظاهر ومنع الناس الدخول إليه، وتوفي في ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، وكان مولده بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة فكان عمره أربعاً وأربعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة، وكان فيه بطش وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي، وكان ذكياً فطناً، وترتب الملك العزيز في المملكة ورجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم، فدبر الأمور وأحسن السياسة، وكان عمر الملك

العزیز لما قرر فی المملكة سنتین وأشهرًا، وعمر أخیه الملك الصالح نحو اثنتی عشرة سنة.

وفی هذه السنة توفي تاج الدین زید بن الحسن بن زید الكندی، وكان إمامًا فی النحو واللغة، وله الإسناد العالی فی الحدیث، وكان ذا فنون كثيرة فی أنواع العلم، وهو بغدادی المولد والمنشأ، وانتقل وأقام بدمشق.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

والسلطان الملك العادل بالدیار المصریة، وقد اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا إلى عكا فی جمع عظیم، ولما بلغ الملك العادل ذلك خرج بعساكر مصر، وسار حتی نزل على نابلس، فسارت الفرنج إليه، ولم یكن معه من العساكر ما یقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم إلى عقبه أفیق، فأغاروا على بلاد المسلمین، ووصلت غارتهم إلى نوى من بلد السواد، ونهبوا ما بین بیسان ونابلس، وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمین ما یفوت الحصر، وعادوا إلى مرج عكا وكانت قوة هذا النهب ما بین منتصف رمضان وعید الفطر من هذه السنة، وأقام الملك العادل بمرج الصفرة، وسارت الفرنج وحصروا حصن الطور، وهو الذی بناه الملك العادل على ماتقدم ذكره، ثم رحلوا عنه وانقضت السنة والفرنج بجموعهم فی عكا.....

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

والملك العادل بمرج الصفرة، وجموع الفرنج بمرج عكا، ثم ساروا منها إلى الدیار المصریة، ونزلوا على دمیاط، وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر، ونزل قبالتهم، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر، وأرسل الملك العادل العساكر التي عنده إلى عند ابنه الملك الكامل،

فوصلت إليه أولاً فأولاً، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل، أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط.

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، صاحب الموصل، وكانت وفاته لثلاث بقين من ربيع الأول، وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكي، وخلف ولدين أكبرهما اسمه أرسلان شاه، وكان عمره حينئذ نحو عشر سنين، فأوصى بالملك له، وأن يقوم بتدبير مملكته بدرالدين لؤلؤ فنصبه بدر الدين لؤلؤ في المملكة، وجعل الخطبة والسكة باسمه، وقام لؤلؤ بتدبير المملكة أحسن قيام.

ذكر وفاة كيكافوس بن كيكافوس صاحب بلاد الروم

ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب، وأجلس ابنه العزيز في المملكة، وكان طفلاً طمع صاحب بلاد الروم كيكافوس في الاستيلاء على حلب، فاستدعى الملك الأفضل صاحب سميساط، واتفق معه كيكافوس أن يفتح حلب وبلادها، ويسلمها إلى الملك الأفضل، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكافوس، وتحالفاً على ذلك وسار كيكافوس إلى جهة حلب، ومعه الملك الأفضل، ووصلا إلى رعبان واستولى عليها كيكافوس وسلمها إلى الملك الأفضل، فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك، ثم سار إلى تل باشر وبها ابن دلدردم ففتحها، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل، وأخذها كيكافوس لنفسه، ففخر خاطر الملك الأفضل وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك، ووصل الملك

الأشرف ابن الملك العادل إلى حلب لدفع كيكائوس عن البلاد، ووصل إليه بها الأمير مانع بن حديثه أمير العرب في جمع عظيم، وكان قد سار كيكائوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضاً، وسار الملك الأشرف بالجموع التي معه، ونزل وادي بزاعا وأتقن بعض عسكره مع مقدمة عسكر كيكائوس، فانهزمت مقدمة عسكر كيكائوس، وأخذ من عسكر كيكائوس عدة أسرى، فأرسلوا إلى حلب ودقت البشائر لها، ولما بلغ ذلك كيكائوس، وهو بمنبج ولى منهزماً مرعوباً، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره، ثم حاصر الأشرف تل باشر واسترجعها، وكذلك استرجع رعبان وغيرها، وتوجه الملك الأفضل إلى سميساط، ولم يتحرك بعدها في طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وعاد الملك الأشرف إلى حلب، وقد بلغه وفاة أبيه.

ذكر وفاة السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب

كان الملك العادل نازلاً بمرج الصفر، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل بالديار المصرية، ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر إلى عالقين وهي عند عقبة أفيق، فنزل بها ومرض، واشتد مرضه ثم توفي هناك إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة خمس عشرة وستمائة، وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة، وكان عمره خمسا وسبعين سنة، وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت مدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة، وكان الملك العادل رحمه الله تعالى حازماً متيقظاً، غزير العقل، شديد الآراء، ذا مكر وخديعة، صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويغضي عنه، وأتته السعادة واتسع ملكه، وكثرت أولاده، ورأى فيهم ما يجب، ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في أولاده من الملك والظفر مارآه الملك العادل في أولاده، ولقد أجاد شرف الدين بن عنين في قصيدته التي مدح بها الملك العادل التي

مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لوسرى
وعليهم لو ساعحوني بالكرى

ومنها:

العادل الملك الذي أسماه
في كل ناحية تشرف منبرا
ما في أبي بكر لمعتق الهدى
شك يريب بأنه خير الورى
بين الملوك الغابرين وبينه
في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسجت خلائقه الحميدة ما أتى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا

ومنها في وصف أولاده:

لا تسمع عن حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا
ولله الملوك بكل أرض منهم
ملك يجر إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تحاله
بدراف إن شهد الوغى فغضنفرا

وخلف الملك العادل ستة عشر ولدا ذكرا غير البنات، ولما توفي الملك العادل لم يكن عنده أحد من أولاده حاضرا، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى، وكان بنا بلس بعد وفاته، وكنتم موته وأخذه ميتا في محفة، وعاد به إلى دمشق واحتوى الملك المعظم على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والسلاح والخيول، وغير ذلك، ولما وصل دمشق حلف جميع الناس له، وأظهر موت أبيه، وجلس للعزاء، وكتب إلى الملوك من أخوته وغيرهم يخبرهم بموته، وكان في خزانة الملك العادل لما توفي سبعمائة

ألف دينار عينا، ولما بلغ الملك الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه ذلك جدا، واختلفت العساكر عليه فتأخر عن منزلته، وطمعت الفرنج، ونهبت بعض أثقال المسلمين، وكان في العسكر عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان مقدما عظيما في الأكراد الهكارية، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة، وحصل في العسكر اختلاف كثير حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد واللحوق باليمن، وبلغ الملك المعظم عيسى بن العادل ذلك فرحل من الشام ووصل إلى أخيه الملك الكامل، وأخرج عماد الدين ابن المشطوب ونفاه من العسكر إلى الشام، فانتظم أمر السلطان الملك الكامل، وقوي مضايقة الفرنج لدمياط وضعف أهلها بسبب ماذكرناه من الفتنة التي حصلت في عسكر الملك الكامل من ابن المشطوب.

ذكر استيلاء عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن أقي سنقر على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل

قد تقدم في سنة سبع وستمائة أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي المذكور قلعتي العقر وشوش، فلما مات أخوه القاهر وأجلس ولده أرسلان شاه ابن القاهر في المملكة، وكان به قروح وأمراض، تحرك عمه عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه وقصد العمادية، واستولى عليها، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ المستولي على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه بالملك الأشرف ابن الملك العادل، ودخل في طاعته، فأنجده الملك الأشرف بعسكر، وساروا إلى زنكي بن أرسلان شاه فهزموه، وكان زنكي المذكور مزوجا ببنت مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وأم البنت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان الملك العادل زوجة مظفر الدين، فكان مظفر الدين لا يترك

ممكنا في نجدة صهره زنكي المذكور ويبالغ في عداوة بدر الدين لؤلؤ
لأجل صهره.....

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

والملك الأشرف مقيم بظاهر حلب يدبر أمر جندها وأقطاعاتها،
والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج، وهم محذون محاصرون لشغر
دمياط، وكتب الملك الكامل متواصلة إلى اخوته في طلب النجدة.

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل

وفي هذه السنة توفي نور الدين أرسلان ابن الملك القاهر مسعود بن
أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر،
وكان لايزال مريضا فأقام بدر الدين لؤلؤ في الملك بعده أخاه ناصر
الدين محمود بن الملك القاهر، وكان عمره يومئذ نحو ثلاث سنين، وهو
آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة، وكان أبوه القاهر آخر من
كان له استقلال بالملك منهم، ثم إن هذا الصبي مات بعد مدة واستقل
بدر الدين لؤلؤ بالملك وأتته السعادة، وطالت مدة ملكه إلى أن توفي
بالموصل، بعد أخذ التتر ببغداد، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة صاحب سنجار

وقد تقدم ذكر ولايته في سنة أربع وتسعين وخمسمائة

وفي هذه السنة: توفي قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن
مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار فملك سنجار
بعده ولده عماد الدين شاهنشاه بن محمد، وكان قطب الدين حسن
السيرة في رعيته وبقي عماد الدين شاهنشاه في الملك شهورا، ثم وثب

عليه أخوه محمود بن محمد فذبحه وملك سنجار، وهذا محمود هو
آخر من ملك سنجار من البيت الأتابكي

ذكر تخريب القدس

وفي هذه السنة: أرسل الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب
دمشق الحجارين والنقابين إلى القدس، فخرّب أسواره، وكانت قد
حصنت إلى الغاية، فانتقل منه عالم عظيم، وكان سبب ذلك أن الملك
المعظم لما رأى قوة الفرنج وتغلبهم على دمياط خشي أن يقصدوا
القدس، فلا يقدر على منعهم فخرّبه لذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

ولم تزل الفرنج يضايقون دمياط حتى هجموها في هذه السنة عاشر
رمضان، وقتلوا وأسروا من بها، وجعلوا الجامع كنيسة، واشتد طمع
الفرنج في الديار المصرية، وحين أخذت دمياط ابنتى الملك الكامل
مدينة وسأها المنصورة عند مفترق البحرين الأخذ أحدهما إلى دمياط
والآخر إلى أشمون طنّاح، ونزل فيها بعساكره.....

ذكر توجه الملك المظفر محمود ابن صاحب حماة إلى مصر وموت والدته

في هذه السنة حلف الملك المنصور صاحب حماة الناس لولده الملك
المظفر محمود، وجعله ولي عهده، وجرّد عسكرا والطواشي مرشد
المنصوري نجدة إلى الملك الكامل بديار مصر فسار إليه، ولما وصل إلى
الملك الكامل أكرمه وأنزله في ميمنة عسكره، وهي منزلة أبيه وجدة في
الأيام الناصرية الصلاحية، وبعد توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة
خاتون بنت الملك العادل.

قال القاضي جمال الدين مؤلف مفرج الكروب: وحضرت العزاء وعمري اثنتا عشرة سنة، ورأيت الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكورة، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء، وأنشدته الشعراء المراثي فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين خشتين، وهو جندي كردي مطلعها:

الطرف في لجة والقلب في سعر
له دخان زفير طار بالشر

ومنها في لبس الملك المنصور الحداد مطلعها :
ماكنت أعلم أن الشمس قد غربت
حتى رأيت الدجى ملقى على القمر
لو كان من مات يفدى قبلها الفدى
أم المظفر آلاف من البشر

ذكر وفاة كيكائوس وملك أخيه كيقباز

في هذه السنة توفي الملك الغالب عز الدين كيكائوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، صاحب بلاد الروم، وقد تقدم ذكر ولايته في سنة سبع وستائة، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه، ومات فملك بعده أخوه كيقباز بن كيخسرو، وكان كيقباز محبوباً قد حبسه أخوه كيكائوس، فأخرجه الجند وملكوه.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة توفي أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري الضرير النحوي الحاسب اللغوي وكان حنبلياً صحب ابن الخشاب النحوي وغيره، وفيها توفي أبو الحسن علي بن القاسم بن علي ابن الحسن الدمشقي الحافظ ابن الحافظ المعروف بابن

عساكر، وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد إلى بغداد، وكان قد وقع على القفل الذي هو فيه في الطريق حرامية، وجرحوا ابن عساكر المذكور، ووصل على تلك الحال إلى بغداد وبقي بها حتى توفي في هذه السنة في جمادى الأولى رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

والفرنج متملكون على دمياط والسلطان الملك الكامل مستقر في المنصورة مرابط للجهاد والملك الأشرف في حران، وكان الملك الأشرف قد أقطع عماد الدين أحمد بن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب رأس عين، فخرج على الملك الأشرف وجمع ابن المشطوب المذكور جمعا وحسن لصاحب سنجار محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف أيضا، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصر ابن المشطوب بتل أعفر، وأخذه بالأمان، ثم قبض عليه، وأعلم الملك الأشرف بذلك فسر به غاية السرور، واستمر عماد الدين أحمد بن سيف الدين بن المشطوب في الحبس، ثم سار الملك الأشرف من حران واستولى على دنيسر، وقصد سنجار، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقة عوض سنجار ليسلم سنجار إلى الملك الأشرف فأجاب الملك الأشرف إلى ذلك وتسلم سنجار في مستهل جمادى الأولى، وسلم إليه الرقة، وهذا كان من سعادة الملك الأشرف فإن أباه الملك العادل نازل سنجار في جموع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه الملك الأشرف بأهون سعي، وبعد أن فرغ الملك الأشرف من سنجار، سار إلى الموصل، ووصل إليها في تاسع عشر جمادى الأولى، وكان يوم وصوله إليها يوما مشهودا، وكتب إلى مظفر الدين صاحب إربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين زنكي بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي على بدر الدين لؤلؤ القلاع التي استولى عليها، فأعادها جميعها، وترك في يده منها العمادية، واستقر الصلح بين الملك الأشرف

وبين مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل وعماد الدين زنكي بن أرسلان شاه صاحب العقرب، وشوش، والعمادية، وكذلك استقر الصلح بينهم وبين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، ولما استقر ذلك رحل الملك الأشرف عن الموصل ثاني شهر رمضان من هذه السنة، وعاد إلى سنجار، وسلم بدر الدين لؤلؤ قلعة تلعفر إلى الملك الأشرف، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل وحطه مقيدا في جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة، ولقي بغيه وخروجه مرة بعد أخرى.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب حماة بقلعة حماة في ذي القعدة، وكان مدة مرضه إحدى وعشرين يوما بحمى حادة وورم دماغه، وكان شجاعا عالما يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة مثل الشيخ سيف الدين علي الأمدي، وكان في خدمة الملك المنصور قريب مائتي متعمم من: النحاة، والفقهاء، والمشتغلين بغير ذلك، وصنف الملك المنصور عدة مصنفات مثل المصهار في التاريخ، وطبقات الشعراء، وكان معتنيا بعمارة بلده، والنظر في مصالحه وهو الذي بني الجسر الذي هو بظاهر حماة خارج باب حمص، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد: حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، ولما فتح بارين وكانت بيد ابراهيم ابن المقدم ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضا عنها، وهما خير من بارين بكثير، اختار ذلك لقرب بارين من بلده، وجرت له حروب مع الفرنج، وانتصر فيها وكان ينظم الشعر.

ذكر استيلاء الملك الناصر ابن الملك المنصور على حماة

ولما توفي الملك المنصور كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بديار مصر في مقابلة الفرنج، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم صاحب دمشق وهو في الساحل في الجهاد، وقد فتح قيسارية وهدمها وسار إلى عثليث ونازلها، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج، فاتفق هو والكبراء على استدعاء الملك الناصر لعلمهم بلين عريكته وشدة بأس الملك المظفر، فأرسلوا إلى الملك الناصر وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مال عليه يجمله إلى الملك المعظم في كل سنة قيل إن مبلغه أربعمائة ألف درهم، فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه أطلقه الملك المعظم فقدم الملك الناصر إلى حماة، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج والجماعة الذين كاتبوه، فاستحلفوه على ما أرادوا، وأصعدوه إلى القلعة، ثم ركب من القلعة بالسناجق السلطانية، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة، لأن مولده سنة ستمائة، ولما استقر الملك الناصر في ملك حماة، وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك، استأذن الملك الكامل في المضي إلى حماة ظنا منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها إليه بحكم الأيمان التي كانت له في أعناقهم، فأعطاه الملك الكامل الدستور، وسار الملك المظفر حتى وصل إلى الغور، فوجد خاله الملك المعظم صاحب دمشق هناك فأخبره أن أخاه الملك الناصر قد ملك حماة ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله، فسار الملك المظفر إلى دمشق، وأقام بداره المعروفة بالزنجيلي وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة في تسليمها إلى الملك المظفر، فلم يحصل منهم إجابة فعاد الملك المظفر إلى مصر، وأقام في خدمة الملك الكامل، وأقطعه أقطاعا بمصر، إلى أن كان ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل على خلاط وميفارقين

كان قد استقر بيد الملك المظفر المذكور: الرها، وسروج، وكانت ميفارقين، وخلاط بيد الملك الأشرف، ولم يكن للملك الأشرف ولد، فجعل أخاه الملك المظفر غازي ولي عهده، وأعطاه ميفارقين وخلاط وبلادها، وهي إقليم عظيم يضاهي ديار مصر، وأخذ الملك الأشرف منه الرها وسروج.

وفي هذه السنة توفي بالموصل الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان فقيها فاضلا من بيت كبير بخراسان، وخلف أربعة بنين عرفوا بأولاد الشيخ، تقدموا عند السلطان الملك الكامل، وسنذكر بعض أخبارهم في موضعها إن شاء الله تعالى، وكان الشيخ صدر الدين المذكور قد توجه رسولا إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فمات هناك.....

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

ذكر عود دمياط إلى المسلمين

وفي هذه السنة قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في ملك الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر، ووصلوا إلى المنصورة، واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وكتب السلطان الملك الكامل متواترة إلى أخوته، وأهل بيته يستحثهم على إنجاده، فسار الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، وهو ببلاد الشرقية واستنجده وطلب منه المسير إلى أخيها الملك الكامل، فجمع الملك الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب، وكذلك استصحب

معه الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور صاحب حماة، وكان الملك الناصر خائفا من السلطان الملك الكامل أن ينتزع حماة منه، ويسلمها إلى أخيه الملك المظفر، فحلف الملك الأشرف للملك الناصر صاحب حماة أنه ما يمكن أخاه السلطان الملك الكامل من التعرض إليه، فسار معه بعسكر حماة، وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من صاحب بعلبك الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق، ووصلوا إلى الملك الكامل وهو في قتال الفرنج على المنصورة، فركب والتقى أخويه ومن في صحبتهما من الملوك، وأكرمهم وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الاسلام وتجملهم، واشتد القتال بين الفريقين ورسل الملك الكامل وأخويه مترددة إلى الفرنج في الصلح، وبذل المسلمون لهم تسليم: القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبلة، وجميع ما فتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ماعدا الكرك والشوبك، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم يرض الفرنج بذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس، فإن الملك المعظم عيسى خربها كما تقدم ذكره، وقالوا لا بد من تسليم الكرك والشوبك، وبيننا الأمر متردد في الصلح والفرنج ممتنعون من الصلح إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة إلى الأرض التي عليها الفرنج من بر دمياط. ففجروا فجرة عظيمة من النيل، وكان ذلك في قوة زيادته، والفرنج لاخبرة لهم بأمر النيل، فركب الماء تلك الأرض، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط، وانقطع عنهم الميرة والمدد، فهلكوا جوعا، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط، ويعقدوا مدة للصلح، وكان فيهم عدة ملوك كبار نحو عشرين ملكا، فاختلقت الآراء بين يدي السلطان الملك الكامل في أمرهم، فبعضهم قال لانهطهم أمانا ونأخذهم ونسلم بهم مابقي

بأيديهم من الساحل مثل عكا وغيرها، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار، وتضجر العساكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور في القتال معهم، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل، فبعث ابنه الملك الصالح أيوب وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة، وحضر من الفرنج رهينة على ذلك ملك عكا ونائب البابا صاحب رومية الكبرى وكندريس، وغيرهم من الملوك، وكان ذلك سابع رجب من هذه السنة، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين وجلس لهم مجلسا عظيما، ووقف بين يديه الملوك من أخوته وأهل بيته جميعهم، وسلمت دمياط إلى المسلمين تاسع عشر رجب من هذه السنة، وقد حصنها الفرنج إلى غاية ما يكون، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوي، وهو من بماليك الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وهنأت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم، ثم سار السلطان الملك الكامل، ودخل دمياط ومعه أخوته وأهل بيته، وكان يوما مشهودا، ثم توجه إلى القاهرة، وأذن للملوك في الرجوع إلى بلادهم، فتوجه الملك الأشرف إلى الشرق، وانتزع الرقة من محمود، وقيل اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ولقي بغيه على أخيه، فإننا ذكرنا كيف وثب على أخيه وقتله، وأخذ سنجارا، ثم أقام الملك الأشرف بالرقة، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة فأقام عنده مدة ثم عاد إلى بلاده.

ذكر وفاة صاحب آمد

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب آمد وحصن كيفا بالقولنج، وقام في الملك بعده ولده الملك المسعود، وهو الذي انتزع منه

الملك الكامل آمد، وكان الملك الصالح المذكور قبيح السيرة، وقد أورد ابن الأثير وفاته في سنة تسع عشرة.....

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

في هذه السنة استقل بدر الدين لؤلؤ بملك الموصل، وتوفي الطفل الذي كان قد نصبه في المملكة وهو ناصر الدين محمود بن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر، وسمى لؤلؤ نفسه الملك الرحيم، وكان قد اعتضد بالملك الأشرف ابن الملك العادل، فدافع عنه ونصره وقلع لؤلؤ البيت الأتابكي بالكلية واستمر مالكا للموصل نيفا وأربعين سنة، سوى ماتقدم له من الاستيلاء والتحكيم في أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه وابنه الملك القاهر مسعود.

وفي هذه السنة سار الملك الأشرف إلى خدمة أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بمصر متنزها إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة فوض الأتابك طغريل الخادم مدبر مملكة حلب إلى الملك الصالح أحمد بن الظاهر أمر الشجر وبكاس، فسار الملك الصالح من حلب، واستولى عليهما، وأضاف إليه الروج ومعة مصرين.

وفي هذه السنة قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة، لأن الملك الناصر صاحب حماة كان قد التزم له ببال يجمله إليه إذا ملك حماة، فلم يف له، فقصد الملك المعظم حماة ونزل بجبرين، وغلقت أبواب حماة، فقصدها الملك المعظم، وجرى بينهم قتال قليل، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها، ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها واليا من جهته، وقرر أمورها ثم عاد إلى سلمية، فأقام بها حتى خرجت هذه السنة في قصد منازل حماة.

وفي هذه السنة: حج من اليمن الملك المسعود بن يوسف الملقب أطسز، وهو اسم تركي، والعامّة تسميه أقسيس، وكان قد استولى على اليمن سنة اثنتي عشرة وستائة، وقبض على سليمان شاه بن شاهنشاه ابن عمر بن شاهشاه بن أيوب، وحج في هذه السنة، فلما وقف الملك المسعود في هذه السنة بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر لترفع على الجبل تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع من ذلك، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه من ذلك ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن، وبلغ ذلك الخليفة فعظم عليه، وأرسل يشكو إلى الملك الكامل فاعتذر عن ذلك فقبل عذره، وأقام الملك المسعود في اليمن مدة يسيرة، ثم عاد إلى مكة ليستولي عليها، فقابله الحسن بن قتادة فانتصر الملك المسعود وانهمز الحسن بن قتادة، واستقرت مكة في ملك الملك المسعود وولى عليها وذلك في ربيع الأول من سنة عشرين وستائة ثم عاد إلى اليمن.

ثم دخلت سنة عشرين وستائة

والأشرف بديار مصر عند أخيه الملك الكامل وأخوهما الملك المعظم بسلمية مستول عليها وعلى المعرة، عازم على حصار حماة، وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة، فعظم عليه ذلك واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على الملك المعظم وهو بسلمية وقال له: السلطان يأمرك بالرحيل، فقال: السمع والطاعة وكانت أطماعه قد قويت في الاستيلاء على حماة، فرحل مغضباً على أخويه الكامل والأشرف، ورجعت المعرة وسلمية للناصر، وكان الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مقيماً عند الملك الكامل بالديار المصرية كما تقدم ذكره، وكان الملك الكامل يؤثر تملكه حماة، لكن الملك الأشرف غير مجيب إلى ذلك لانتماء الملك الناصر صاحب حماة إليه، وجرى بين الكامل والأشرف في ذلك

مراجعات كثيرة آخرها أنها اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر قليج أرسلان وتسليمها إلى أخيه الملك المظفر، فتسلمها الملك المظفر، وأرسل إليها وهو بمصر نائبا من جهته حسام الدين أبا علي ابن محمد بن علي الهذباني، واستقر بيد الملك الناصر حماة والمعرة، وبعرين، ثم سار الأشرف من مصر، واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب، وعمره يومئذ عشر سنين، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب، وأركب الملك العزيز في دست السلطنة، وفي هذه السنة لما وصل الملك الأشرف بالخلعة المذكورة إلى حلب، اتفق مع الملك الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكرا وهدمها إلى الأرض.....

ذكر حادثة غريبة

كان أهل مملكة الكرج قد مات ملكهم ولم يبق من بيت الملك غير امرأة فملكوها، وطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك ويكون من أهل بيت المملكة فلم يجدوا فيهم أحدا يصلح لذلك، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقي من بيت كبير مشهور، فأرسل يخطب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصر فأمر ولده فتنصر، وسار إلى الكرج وتزوج ملكتهم، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكا لها ويعلم ابن طغريل شاه بذلك وتكامن فدخل يوما إلى البيت فوجد المملوك نائما معها في الفراش، فلم يصبر المذكور على ذلك فأنكر عليها فأخذته زوجته واعتقلته في بعض القلاع، ثم أحضرت رجلين كانا قد وصفا لها بحسن الصورة فتزوجت أحدهما ثم فارقت، وأحضرت انسانا من كنجة مسلما وهويته وسألته ان يتنصر لتتزوج به فلم يجب إلى ذلك، وتردد الرسل بينهما في ذلك مدة فلم يجبهما إلى التنصر.....

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

ذكر عصيان المظفر غازي بن العادل على أخيه الملك
الأشرف

كان الملك الأشرف قد أنعم على أخيه الملك المظفر غازي بخلاط، وهي مملكة عظيمة، وهي إقليم أرمينية وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين أخويه الكامل والأشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة، كما قدمنا ذكره، فأرسل المعظم وحسن لأخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الملك الأشرف، فأجاب الملك المظفر إلى ذلك، وخالف أخاه الملك الأشرف، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الملك الأشرف، فسار مظفر الدين صاحب إربل وحصر الموصل عشرة أيام، وكان نزوله على الموصل ثالث عشر جمادى الآخرة من هذه السنة، ليشغل الملك الأشرف عن قصد أخيه بخلاط، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها، فلم يلتفت الملك الأشرف إلى محاصرة الموصل، وسار إلى خلاط وحصر أخاه شهاب الدين غازي، فسلمت إليه مدينة خلاط، وانحصر أخوه غازي بقلعتها إلى الليل، فنزل من القلعة إلى أخيه الملك الأشرف واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميفارقين وارتجع باقي البلاد منه، وكان استيلاء الملك الأشرف على خلاط، وأخذها من أخيه في جمادى الآخرة من هذه السنة.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة

ذكر وفاة الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين يوسف

في هذه السنة توفي الملك الأفضل المذكور، وليس بيده غير سميساط فقط، وكان موته فجأة وعمره سبع وخمسون سنة، وكان الملك الأفضل فاضلا حسن السيرة، وتجمعت فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، وكان مع ذلك قليل الحظ، وله الأشعار الحسنة فمنها يعرض إلى سوء حظه قوله:

يامن يسود شعره بخضابه

لعساة من أهل الشيبة يحصل

هافا خضب بسواد حظي مرة

ولك الأمان بأنه لا ينصل

ولما أخذت منه دمشق كتب إلى بعض أصحابه كتابا منه: أما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك:

أي صديق سألت عنه ففي الد

ل وتحت الخمول في الوطن

وأي ضد سألت حالته

سمعت مالا تجبه أذني

ذكر وفاة الإمام الناصر

وفي أول شوال من هذه السنة توفي الخليفة الناصر لدين الله، وكانت مدة خلافته نحو سبع وأربعين سنة وعمي في آخر عمره، وكان موته بالدوسنطاريا، وهو الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن

المستضىء حسن ابن المستنجد يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر أحمد ابن المقتدي عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن القائم عبد الله ابن القادر أحمد ابن الأمير اسحق ابن المقتدر جعفر ابن المقتفي علي ابن المعتضد أحمد ابن الأمير الموفق— قيل اسمه طلحة وقيل محمد— ابن المتوكل جعفر ابن المعتصم محمد ابن الرشيد هرون ابن المهدي محمد ابن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم العباس بن عبد المطلب بن هاشم وكان عمر الإمام الناصر نحو سبعين سنة، وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً لهم خرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وكان يتشيع وكان منصرف الهمة إلى رمي البندق والطيور المناسب ويلبس سراويلات الفتوة ومنع رمي البندق إلا من ينسب إليه، فأجابه الناس إلى ذلك إلا انساناً واحداً يقال له ابن السفت وهرب من بغداد إلى الشام، وقد نسب الإمام الناصر أنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد، بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش من العداوة، ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق.

ذكر خلافة ابنه الظاهر

وهو خامس ثلاثينهم ولما توفي الإمام الناصر ببيع ولده الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، فأظهر العدل، وأزال المكوس، وأخرج المحبوسين وظهر للناس، وكان الناصر ومن قبله لا يظهرون إلا نادراً، ولم تطل مدته في الخلافة غير تسعة أشهر.....

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة

فيها سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق، ونازل حمص، وكان قد اتفق مع جلال الدين ابن خوارزم شاه ومع مظفر

الدين صاحب إربل على أن يكونوا يدا واحدة، وكان الملك الأشرف ببلاده الشرقية، ثم رحل المعظم عن حمص إلى دمشق بسبب كثرة مامات من خيله وخيل عسكره، وورد عليه أخوه الملك الأشرف طلبا للصلح وقطعا للفتن فبقي مكرما ظاهرا، وهو في الباطن كالأسير معه، وأقام الملك الأشرف عند أخيه المعظم إلى أن انقضت هذه السنة، وأما الملك الكامل فإنه كان بمصر وقد تخيل من بعض عسكره فما أمكنه الخروج عنها.

وفي هذه السنة فتح السلطان جلال الدين تفليس من الكرج وهي من المدن العظام، وفي هذه السنة سار جلال الدين ونازل خلطاط وهي منازلته الأولى، فطال القتال بينهم وكان نائب الأشرف بخلاط الحاجب حسام الدين علي الموصللي، وكان نزوله عليها ثالث عشر ذي القعدة ورحل عنها لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة بسبب كثرة الثلوج.

ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

وفي رابع عشر رجب من هذه السنة توفي الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله، وكان متواضعا محسنا إلى الرعية جدا، وأبطل عدة مظالم، منها أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي يتعامل بها الناس، وكان زيادة الصنجة في كل دينار حبة، فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله: (ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) (المطففون ١-٣) وعمل صنجه المخزن مثل صنجة المسلمين، وكان مضادا لأبيه الناصر في كثير من أحواله منها أن مدة خلافة أبيه كانت طويلة، ومدة خلافته كانت قصيرة، وكان أبوه متشيعا، وكان الظاهر سنيا، وكان أبوه ظالما جماعا للمال، وكان الظاهر في غاية العدل وبذل الأموال للمحبوسين على الديون وللعلماء.

ذكر خلافة المستنصر

وهو سادس ثلاثينهم، ولما توفي الظاهر ولي الخلافة بعده ولده الأكبر المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وكان للظاهر ولد آخر يقال له الخفاجي في غاية الشجاعة، وبقي حيا حتى أخذت التتر بغداد، وقتل مع من قتل، ولما تولى المستنصر الخلافة سلك في العدل والإحسان مسلك ابيه الظاهر.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود الأرتقي صاحب آمد، فنزل كيقباز بملطية وهي من بلاد كيقباز، وأرسل عسكريا ففتحوا حصن منصور وحصن الكختا، وكانا لصاحب آمد المذكور.

وفيها في خامس عشر الحجة نازل جلال الدين مدينة خلط وهي للملك الأشرف وبها نائبه حسام الدين علي الحاجب، وهي منازلته الثانية، وجرى بينهم قتال شديد، وأدركه البرد، فرحل عنها في السنة المذكورة.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والمملك الكامل بديار مصر، وجمال الدين خوارزم شاه مالك أذربيجان وأران، وبعض بلاد الكرج، وعراق العجم وغيرها، وهو موافق الملك المعظم على حرب أخويه الكامل والأشرف، والرسول لاتنقطع بين المعظم وجمال الدين، والمملك الأشرف مقيم كالأسير عند أخيه الملك المعظم، ولما رأى الملك الأشرف حاله مع أخيه المعظم، وأنه لاخلاص له منه إلا بإجابته إلى ما يريد، أجابه كالمكره إلى ماطلبه منه، وحلف له أن

يعاضده، ويكون معه على أخيها الملك الكامل، وأن يكون معه على صاحبي حماة وحمص، فلما حلف له على ذلك أطلقه الملك المعظم، فرحل الملك الأشرف في جمادى الآخرة من هذه السنة، فكانت مدة مقامه مع المعظم نحو عشرة أشهر، ولما استقر الملك الأشرف ببلاده رجع عن جميع ماتقرر بينه وبين أخيه الملك المعظم، وتأول في أيمانه التي حلفها أنه مكره، ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد أخيه الملك المعظم بجلال الدين خاف من ذلك، وكاتب الانبرطور ملك الفرنج في أن يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه، ووعد الانبرطور بأن يعطيه القدس، فسار الانبرطور إلى عكا، فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطفه، وفي هذه السنة انتزع الاتابك طغريل الشغر وبكاس من الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر، وعوضه عنها بعيثاب والراوندان.

وفيها سار الحاجب حسام الدين علي، نائب الملك الأشرف بخلاط بعساكر الملك الأشرف إلى بلاد جلال الدين واستولى على: خوي، وسلماس، ونقجوان.

ذكر وفاة الملك المعظم صاحب دمشق

في هذه السنة في ذي القعدة توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة دمشق بالدوسنطاريا، وعمره تسع وأربعون سنة، وكانت مدة ملكه دمشق تسع سنين وشهورا، وكان شجاعا، وكان عسكره في غاية التجميل، وكان يجامل أخاه الملك الكامل، ويخطب له ببلاده، ولا يذكر اسمه معه، وكان الملك المعظم قليل التكلف جدا في غالب الأوقات لا يركب بالسناجق السلطانية، وكان يركب وعلى رأسه كلوته صفراء بلا شاش، ويتخرق الأسواق من غير أن يطرق بين يديه، كما جرت عادة الملوك، ولما كثر مثل هذا منه صار الانسان إذا فعل أمرا لا يتكلف له يقال قد فعله بالمعظمي، وكان عالما فاضلا في الفقه والنحو، وكان شيخه في النحو تاج الدين زيد بن الحسن الكندي، وفي الفقه جمال الدين الحصري، وكان حنفيا متعصبا للذهب، وخالف جميع أهل بيته فإنهم كانوا شافعية، ولما توفي الملك المعظم ترتب في مملكته وأعمالها بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وقام بتدبير مملكته مملوك والده وأستاذ داره الأمير عز الدين أيبك المعظمي، وكان لأيبك المذكور صرخد.....

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

في هذه السنة أرسل الملك الكامل، صاحب مصر، يطلب من ابن أخيه الملك الناصر داود ابن الملك المعظم صاحب دمشق حصن الشوبك، فلم يعطه الملك الناصر ذلك، ولأجابه إليه، فسار الملك الكامل من مصر في هذه السنة في رمضان إلى الشام، ونزل على تل العجول بظاهر غزة، وولى على نابلس والقدس وغيرها من بلاد ابن أخيه الملك الناصر داود المذكور صاحب دمشق حينئذ، وكان صحبة الملك الكامل الملك المظفر محمود بن السلطان الملك المنصور صاحب حماة،

وهو موعود من الملك الكامل انه ينتزع حماة من أخيه الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور ويسلمها إليه.

ولما قصد الملك الكامل انتزاع بلاد الملك الناصر ابن المعظم صاحب دمشق استنجد الناصر داود بعمه الملك الأشرف، وأرسل إليه وهو ببلاده الشرقية، فقدم الملك الأشرف إلى دمشق، ودخل هو والناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين.

قال القاضي جمال الدين ابن واصل: كنت إذ ذاك حاضرا بدمشق ورأيت الملك الأشرف راكبا مع ابن أخيه، وعلى رأس الملك الأشرف شاش علم كبير، ووسطه مشدود بمنديل، وكان وصول الأشرف إلى دمشق في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، ووصل إلى خدمته بدمشق الملك المجاهد شيركوه، فإنه كان من المنتمين إلى الملك الأشرف، ثم وقع الاتفاق أن يسير الناصر داود وشيركوه مع الملك الأشرف إلى نابلس، فيقيم الناصر داود بنابلس، ويتوجه الملك الأشرف إلى أخيه الكامل إلى غزة شافعا في ابن أخيهما الناصر داود، ففعلوا ذلك ولما وصل الملك الأشرف إلى أخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر داود وتعويضه عنها، بحران والرها، والرقعة، من بلاد الملك الأشرف، وأن تستقر دمشق للملك الأشرف، ويكون له إلى عقبه أفيق، وماعدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل، وإن تنتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان وتعطى للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور وأن تنتزع سلمية من المظفر محمود، وكانت أقطاعه لما كان مقبيا بمصر عند الملك الكامل، وتعطى لشيركوه صاحب حمص، وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة، وقد اتفقا على ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة عاود التتر إلى قصد البلاد التي بيد جلال الدين بن خوارزم شاه، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة كان في أكثرها الظفر للتتر.

وفيها قدم الانمبرطور إلى عكا بجموعه، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الانمبرطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل، ولما وصل الانمبرطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج، وسورها خراب، فعمر الفرنج سورها، واستولوا عليها، والانمبرطور معناه ملك الأمراء بالفرنجية، وإنما اسم الانمبرطور المذكور فرديك، وكان صاحب جزيرة صقلية ومن البر الطويل بلاد انبولية والانبردية.

قال القاضي جمال الدين بن واصل: لقد رأيت تلك البلاد لما توجهت رسولا من الملك الظاهر بيبرس الصالحي إلى الانمبرطور ملك تلك البلاد، قال: وكان الانمبرطور من بين ملوك الفرنج فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب، مائلا إلى المسلمين لأن منشأة بجزيرة صقلية، وغالب أهلها مسلمون، وترددت الرسل بين الملك الكامل وبين الانمبرطور إلى أن خرجت هذه السنة.

وفي هذه السنة بعد فراغ جلال الدين من التتر قصد جلال الدين المذكور بلاد خلاط ونهب القرى وقتل وخرب البلاد وفعل الأفعال القبيحة.....

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

ولما جرى بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف الاتفاق على نزع دمشق من الناصر داود، وبلغ الناصر داود ذلك، وهو

بنابلس، فرحل إلى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الملك الأشرف وعرفه ما أمر به عمه الملك الكامل، وأنه لا يمكنه الخروج عن مرسومه، فلم يلتفت الناصر داود إلى ذلك، وسار إلى دمشق، وسار الأشرف في أثره، وحصره بدمشق، والملك الكامل مشتغل بمراسلة الانمبرطور إلى تسليم القدس إليه على أن تستمر أسواره خرابا، ولا يعمرها الفرنج، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة، ولا إلى الجامع الأقصى، ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين، ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط، ووقع الاتفاق على ذلك، وتحالفا عليه وتسلم الانمبرطور القدس في هذه السنة في ربيع الآخر على هذه القاعدة التي ذكرناها، وكان ذلك والملك الناصر محصور بدمشق، وعمه الأشرف محاصره بأمر الملك الكامل، فأخذ الناصر داود في التشنيع على عمه بذلك، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي، واعظا وله قبول عند الناس، فأمره الناصر داود بعمل مجلس وعظ يذكر فيه فضائل بيت المقدس، وما حل بالمسلمين من تسلميه إلى الفرنج، ففعل ذلك وكان مجلسا عظيما، ومن جملة ما أنشد قصيدة تائية ضمنها بيت دعبل الخزاعي وهو:

مدارس آيات خلت من تلاوة

ومنزل وحي مفقر العرصات

فارتفع بكاء الناس وضجيجهم.

ذكر انتزاع دمشق

ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الانمبرطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق، ووصل إليها في جمادى الأولى من هذه السنة، واشتد الحصار على دمشق، ووصل إلى الملك الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب، وخطب بنت الملك الكامل فزوجه بنته فاطمة خاتون

التي هي من الست السوداء أم ولده أبي بكر العادل بن الكامل، ثم استولى الملك الكامل على دمشق، وعوض الناصر داود عنها: بالكرك، والبلقاء، والصلت، والأغوار، والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر، وهي: حران، والرها، وغيرهما التي كانت بيد الملك الأشرف، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها، وتسلم دمشق الملك الأشرف، وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة.....

ذكر القبض على الحاجب علي نائب الملك الأشرف بخلاط وقتله

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك الأشرفي، وهو أكبر أمير عنده، إلى خلاط فقبض على الحاجب علي الموصلي وحبسه ثم قتله، وكان حسام الدين علي الحاجب المذكور، من أهل الموصل، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بخلاط فأحسن إلى الرعية وحفظ البلد، واستولى على عدة بلاد من أذربيجان مثل نقجوان وغيرها على ما تقدم ذكره، فقبض عليه الملك الأشرف وقتله، وهذا الحاجب حسام الدين المذكور كان كثير الخير والمعروف، بنى الخان الذي بين حران ونصيبين، وبنى الخان الذي بين حمص ودمشق، وهو الخان المعروف بخان بريج العطش، وهرب مملوك لحسام الدين الحاجب المذكور لما قتل استأذه ولحق بجلال الدين، فلما ملك جلال الدين خلاط على ما سئذره قبض على أيبك المذكور وسلمه إلى المذكور، فقتله وأخذ بثأر استأذه.

ذكر استيلاء الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد على حماة

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الملك الأشرف، سار من دمشق ونزل على مجمع المروج، ثم نزل سلمية، وأرسل عسكريا نازلوا حماة وبها صاحبها الملك الناصر قليج أرسلان، وكان فيه جبن، ولو عصى بحماة وطلب عنها عوضا كثيرا لأجابه الملك الكامل إليه، ولكنه خاف، وكان في العسكر الذين نزلوه شيركوه صاحب حمص، فأرسل الناصر صاحب حماة يقول لشيركوه: إني أريد أن أخرج إليك بالليل لتحضرني عند السلطان الملك الكامل، وخرج الملك الناصر قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المذكور إلى شيركوه في العشر الأخير من رمضان هذه السنة، وأخذه شيركوه ومضى به إلى الملك الكامل، وهو نازل على سلمية فحين رأى الملك الكامل قليج أرسلان المذكور شتمه وأمر باعتقاله، وأن يتقدم إلى نوابه بحماة بتسليمها إلى الملك الكامل، فأرسل الناصر قليج أرسلان علامته إلى نوابه بحماة أن يسلموها إلى عسكر السلطان الملك الكامل، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان، وكان بقلعة حماة أخ للملك الناصر يلقب الملك المعز ابن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة، وقالوا للملك الكامل لانسلم حماة لغير أحد من أولاد تقي الدين، فأرسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماة، وكان الملك المظفر نازلا على حماة من جملة العسكر الكامل، فراسل الملك المظفر الحكام بحماة فحلفوا ووعدوا الملك المظفر أن يحضر بجماسته خاصة وقت السحر إلى باب النصر ليفتحوه له، فحضر الملك المظفر سحر الليلة التي عينوها ففتحوا له باب النصر، ودخل الملك المظفر ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الاكرام داخل باب المغار، وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية، وقفها عمه مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور،

وحضر أهل حماة وهنؤوا الملك المظفر بملك حماة، وكان ذلك في العشر الأخير من رمضان من هذه السنة، وكان مدة ملك الملك الناصر قليج أرسلان حماة تسع سنين إلا نحو شهرين، وأقام الملك المظفر في دار الإكرام يومين، وصعد في اليوم الثالث إلى القلعة وتسلمها، وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك حماة، وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان أخوه الملك الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة، ولما ملك الملك المظفر حماة فوض تدبير أمورها صغيرها وكبيرها إلى الأمير سيف الدين علي الهذباني، وكان سيف الدين علي ابن أبي علي المذكور، قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين ابن أبي علي الذي كان نائب الملك المظفر بسلمية، لما سلمت إليه وهو بمصر، عند الملك الكامل، ثم حصل بين الملك المظفر وبين حسام الدين ابن أبي علي وحشة، ففارقه حسام الدين المذكور واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، وحظي عنده وصار استاذ داره، وخدم ابن عمه سيف الدين علي المذكور الملك المظفر، وكان يقول له: اشتهى أراك صاحب حماة، وأكون بعين واحدة فأصيبت عين سيف الدين علي على حصار حماة لما نازها عسكر الملك الكامل، وبقي بفرد عين، فحظي عند الملك المظفر لذلك، ولكفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره.

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة انتزع الملك الكامل سلمية منه، وسلمها إلى شريكه صاحب حمص على ما كان وقع عليه الاتفاق من قبل ذلك، ثم إن الملك الكامل رسم للملك المظفر أن يعطي أخاه الملك الناصر قليج أرسلان بارين بكماها، فامثل ذلك، وسلم قلعة بارين إلى أخيه الملك الناصر، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة والمعرة، وكان بحماة تقدير أربعمئة ألف درهم للملك الناصر، وكان قد رسم الملك الكامل للملك المظفر أن يعطي المال المذكور أخاه الملك الناصر، فهاطل المظفر في ذلك ولم يحصل للملك الناصر من ذلك شيء، ولما استقر

الملك المظفر بحماة مدحه الشيخ شرف الدين عبد العزيز محمد بن عبد
المحسن الأنصاري الدمشقي بقصيدة من جملتها:
تناهى إليك الملك وأشد كاهله
وحل بك الراجي فحطت رواحله
ترحلت عن مصر فأحل ربعها
ولما حللت الشام روض ماحله
وعزت حماة في همى أنت غابه
بصولته تحمي كليب ووائله
وقد طال ما ظلت بتدبير أهوج
يخيب مرجيه ويحرم سائله

ولما استقر الملك المظفر في ملك حماة، رحل الملك الكامل عن سلمية
إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الملك الأشرف عوضاً عن
دمشق، فنظر في مصالحها، ثم سافر الملك المظفر من حماة ولحق الملك
الكامل وهو بالشرق، وعقد له الملك الكامل العقد هناك على ابنته غازية
خاتون بنت الملك الكامل، وهي شقيقة الملك المسعود صاحب اليمن،
وهي والدة الملك المنصور صاحب حماة، وأخيه الملك الأفضل نور الدين
علي ابني الملك المظفر محمود، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة وقد قضيت
أمانيه بملك حماة ووصلته بخاله الملك الكامل، وكان يتمنى ذلك لما
كان بالديار المصرية، وكان يصحبه وهو بمصر رجل من أهلها يقال له
الزكي القومصي، فاتفق وهما بمصر وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر
حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل فأنشده الزكي القومصي:

متى أراك كما أهوى وأنت ومن
تهوى كما أنكما روحان في بدن
هناك أنشد والأقدار مصغية
هيت بالملك والأحباب والوطن

فقال له الملك المظفر: إن صار ذلك يازكي أعطيتك ألف دينار

مصرية، فلما ملك الملك المظفر حماة أعطى الزكي ماوعده به، ولما فرغ الملك الكامل من تقرير أمر البلاد الشرقية وهي: حران وماعها من البلاد مثل: رأس عين، والرها، وغير ذلك عاد إلى الديار المصرية.

وفي هذه السنة أرسل الملك الأشرف أخاه صاحب بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك، وبها صاحبها الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب واستمر الحصار عليه.

وفيها سار جلال الدين ملك الخوارزمية وحاصر خلاط وبها أيك نائب الملك الأشرف إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

ذكر عمارة شميميس

في هذه السنة شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس، وكان لما سلم إليه الملك الكامل سلمية قد استأذنه في عمارة تل شميميس قلعة، فأذن له بذلك، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك، ثم لم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة سلم الملك الأجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب بعلبك إلى الملك الأشرف لطول الحصار عليه، وعوضه الملك الأشرف عنها الزبداني وقصير دمشق الذي هو شماليها ومواضع أخرى،

وتوجه الملك الأجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة، وهي التي ينزلها النواب.

ذكر مقتل الملك الأجد

لما أخذ منه بعلبك ونزل بداره المذكورة كان قد حبس بعض مماليكه في مرقد عنده بالدار، وجلس الملك الأجد قدام باب المرقد يلعب بالنرد، ففتح المملوك المذكور الباب ومعه سيف وضرب به استاذة الملك الأجد فقتله، ثم طلع المملوك الى سطح الدار وألقى نفسه السى وسطها فمات ، ودفن الملك الأجد بمدرسة والده التي على الشرف، وكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة، لأن عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملكه بعلبك سنة ثمان وسبعين وخمسة مائة لما مات أبوه فرخشاه، وانتزعت منه هذه السنة فذلك خمسون سنة إلا سنة، وكان الملك الأجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

ذكر ملك جلال الدين خلط

في هذه السنة لما طال حصار جلال الدين على خلط واشتد مضايقتها هجمها بالسيف، وفعل في أهلها ما يفعلونه التتر من القتل والاسترقاق والنهب ثم قبض على نائب الملك الأشرف بها، وهو مملوكه أيبك، وسلمه إلى مملوك حسام الدين الحاجب علي الموصلي، فقتله وأخذ بثأر أستاذه.

ذكر كسرة جلال الدين من الملك الأشرف

ولما جرى من جلال الدين ماجرى من أخذ خلط اتفق صاحب الروم كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان والملك الأشرف ابن الملك العادل، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام وسار إلى سيواس، واجتمع

فيها بملك بلاد الروم علاء الدين كيقباذ المذكور، وسار إلى جهة خلاط والتقى الفريقان في التاسع والعشرين من رمضان من هذه السنة، فولى الخوارزميون وجمال الدين منهزمين، وهلك غالب عسكره قتلا وترديا من رؤوس جبال كانت في طريقهم، وضعف جلال الدين بعدها، وقويت عليه التتر، وارتجع الملك الأشرف خلاط وهي خراب يباب، ثم وقعت المراسلة بين الملك الأشرف وكيقباذ وجمال الدين وتصالخوا وتحالفوا على ما بأيديهم، وأن لا يتعرض أحد منهم إلى ما بيد الآخر.

وفي هذه السنة استولى الملك المظفر غازي ابن الملك العادل على أرزن من ديار بكر، وهي غير أرزن الروم، وكان صاحب أرزن ديار بكر يقال له حسام الدين من بيت قديم في الملك، فأخذها منه الملك المظفر غازي المذكور وعوضه عن أرزن بمدينة حاني، وهذا حسام الدين من بيت كبير يقال لهم بيت الأحذب، وأرزن لم تنزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه السلجوقي إلى الآن فسبحان من لا يزول ملكه.

وفيها جمعت الفرنج من حصن الأكراد وقصدوا حماة، فخرج إليهم الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة والتقاها عند قرية بين حماة وبارين يقال لها لفيون، وكسره كسرة عظيمة، ودخل الملك المظفر محمود حماة مؤيدا منصورا.

وفيها ولد الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

والسلطان الملك الكامل بديار مصر، وأخوه الملك الأشرف بدمشق في ملاذه، وقد تحلى عن البلاد الشرقية، فإن حران وماعها صارت لأخيه الملك الكامل، وخالط صارت خرابا يبابا، ولم يكن للملك الأشرف ابن ذكر، فاقتنع بدمشق واشتغل باللهو والملاذ، وفيها سار الملك الأشرف من

دمشق إلى عند أخيه الملك الكامل، وأقام عنده بالديار المصرية متنزها.

ذكر قصد التتر بلاد الاسلام

وفي هذه السنة عاودت التتر قصد بلاد الاسلام، وسفكوا وخرّبوا مثل ماتقدم ذكره، وكان قد ضعف جلال الدين لقبح سيرته، وسوء تدبيره، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف، وعادى الجميع، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلف عليه لما حصل لجلال الدين من فساد عقله، وسببه أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة، واتفق موت ذلك المملوك، فحزن عليه حزنا شديدا لم يسمع بمثله، وأمر أهل توريز بالخروج والنواح واللطم عليه، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسل منه إلى المملوك الميت ولا يتجاسر احد أن يتفوه أنه ميت، فكانوا يحملون إليه الطعام ويقولون إنه يقبل الأرض وهو يقول: إني الآن أصلح مما كنت، فأنف أمراؤه من ذلك، وخرج بعضهم عن طاعته، فضعف امر جلال الدين لذلك ولكسرتة من الملك الأشرف، فتمكن التتر من البلاد، واستولوا على مراغة، وهو استيلاؤهم الثاني.

ذكر قتل جلال الدين

ولما تمكن التتر من بلاد أذربيجان، سار جلال الدين يريد دينار بكر ليسير إلى الخليفة ويلتجىء إليه، ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم، فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلا وخالطوا مخيمه، فهرب جلال الدين وقتل على ماشرحه إن شاء الله تعالى، ولما قتل تمكن التتر من البلاد، وساقوا حتى وصلوا في هذه السنة إلى الفرات، واضطرب الشام بسبب وصولهم إلى الفرات، ثم شنوا الغارات في ديار بكر والجزيرة، وفعلوا من القتل والتخريب مثل ماتقدم.....

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

والسلطانان الكامل والأشرف بالديار المصرية، والملك المظفر بحماة مالكةا ومعها المعرة، وأخوه الملك الناصر قليج أرسلان ببارين مالكةا، والعزیز محمد بن الظاهر غازي قد استقل بملك حلب والتتر قد استولوا على بلاد العجم كلها، والخليفة المستنصر بالعراق، ثم ارتحل في هذه السنة الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف من ديار مصر وسارا إلى البلاد الشرقية، فسار الملك الكامل إلى الشوبك واحتفل له الملك الناصر داود ابن المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب احتفالا عظيما بالضيافات والاقامات والتقدم، وحصل بينهما الاتحاد التام، وكان نزول الملك الكامل باللجون قرب الكرك، وهي منزلة الحجاج، في العشر الأخير من شعبان هذه السنة ووصل إليه باللجون صاحب حماة الملك المظفر محمود ملتقيا، وسافر الناصر داود مع الملك الكامل بعسكره إلى دمشق، واستصحب الملك الكامل معه ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجعل نائبه بمصر ولده وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، ثم سار الملك الكامل سيف الدين أبا بكر ابن الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، ثم سار الملك الكامل ونزل سلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم، ثم سار بهم إلى آمد وحصرها، وتسلمها من صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ابن سقمان بن أرتق، ومحمد بن قرا أرسلان المذكور هو الذي ملكه السلطان صلاح الدين آمد بعد انتزاعها من ابن نيسان، وكان سبب انتزاع الملك الكامل آمد من الملك المسعود المذكور لسوء سيرة الملك المسعود وتعرضه لحريم الناس، وكان له عجوز قوادة يقال لها الازاء، تؤلف بينه وبين نساء الناس الأكابر، ونساء الملوك، ولما نزل الملك المسعود إلى خدمة الملك الكامل وسلم آمد وبلادها إليه ومن جملة معاقلةا حصن كيفا وهو في غاية الحصانة، أحسن الملك الكامل إلى

الملك المسعود وأعطاه اقطاعات جلييلة بديار مصر، ثم بدت منه أمور اعتقله الملك الكامل بسببها، ولم يزل الملك المسعود معتقلا إلى أن مات الملك الكامل، فخرج من الاعتقال، واتصل بحماة فأحسن إليه الملك المظفر محمود صاحب حماة، ثم سافر الملك المسعود المذكور الى الشرق واتصل بالتر فقتلوه، ولما تسلم الملك الكامل آمد وبلادها رتب فيها النواب من جهته، وجعل فيها ولده الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وجعل معه شمس الدين صواب العادلي، وخرجت هذه السنة والملك الكامل بالشرق، ولما خرج الملك الكامل من مصر في هذه السنة خرج صحبته بنتاه فاطمة خاتون زوجة الملك العزيز صاحب حلب، وغازية خاتون زوجة الملك المظفر صاحب حماة بنتا الملك الكامل، وحملت كل منهما إلى بعلها، واحتفل لدخولهما بحماة وحلب.....

ثم دخلت سنة ثلاثين وستائة

في هذه السنة رجع السلطان الملك الكامل من البلاد الشرقية بعد ترتيب أمورها، وسار إلى ديار مصر، ورجع كل ملك إلى بلده.

ذكر استيلاء الملك العزيز محمد بن الظاهر صاحب حلب على شيزر

وكانت شيزر بيد شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين عثمان بن الداية، وكان سابق الدين عثمان بن الداية المذكور واخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي، ثم اعتقل الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الشهيد سابق الدين عثمان ابن الداية وشمس الدين أخاه، فأنكر السلطان صلاح الدين عليه ذلك، وجعله حجة لقصد الشام وانتزاعه من الملك الصالح اسماعيل، فاتصل أولاد الداية بخدمة السلطان صلاح الدين، وصاروا من أكبر أمرائه، وكانت شيزر

اقطاع سابق الدين المذكور، فأقره السلطان صلاح الدين عليها وزاده أبا قبيس لما قتل صاحبها خمارتكين، ثم ملك شيزر بعده ولده مسعود بن عثمان حتى مات، وصارت لولده شهاب الدين يوسف المذكور إلى هذه السنة، فسار الملك العزيز صاحب حلب بأمر الملك الكامل وحاصر شيزر، وقدم إليه وهو على حصارها الملك المظفر محمود صاحب حماة مساعدا له، فسلم شهاب الدين يوسف شيزر إلى الملك العزيز، ونزل إلى خدمته، فتسلمها في هذه السنة، وهنى الملك العزيز يحيى بن خالد بن القيسراني بقوله:

يامالكاعم أهل الأرض نائله
وخص إحسانه الداني مع القاصي
لما رأته شيزر آيات نصرك في
أرجائها ألقت العاصي إلى العاصي

ثم ولى الملك العزيز على شيزر، وأحسن إلى الملك المظفر محمود صاحب حماة، ورحل كل منهما إلى بلده.

وفي هذه السنة استأذن الملك المظفر محمود صاحب حماة الملك الكامل في انتزاع بارين من أخيه قليج أرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج، لضعف قليج أرسلان عن مقاومتهم، فأذن الملك الكامل له في ذلك، فسار الملك المظفر من حماة وحاصر بارين وانتزعها من أخيه قليج أرسلان ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولما نزل قليج أرسلان إلى أخيه الملك المظفر أحسن إليه وسأله في الإقامة عنده بحماة فامتنع، وسار إلى مصر، فبذل له الملك الكامل اقطاعا جليلا وأطلق له أملاك جده بدمشق، ثم بدا منه مالا يليق من الكلام فاعتقله الملك الكامل إلى أن مات قليج أرسلان المذكور في الحبس سنة خمس وثلاثين وستمائة، قبل موت الملك الكامل بأيام.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة توفي مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك، وقد تقدم ذكر ملكه إربل بعد موت أخيه نور الدين يوسف بن زين الدين علي في سنة ست وثمانين وخمسمائة، لما كانا في خدمة السلطان صلاح الدين في الجهاد بالساحل، فبقي مالهما من تلك السنة إلى هذه السنة، ولما مات مظفر الدين المذكور لم يكن له ولد فوصى بإربل وبلادها للخليفة المستنصر، فتسلمها الخليفة بعد موت مظفر الدين المذكور، وكان مظفر الدين ملكا شجاعا وفيه عسف في استخراج الأموال من الرعية، وكان يحتفل بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وينفق فيه الأموال الجليلة.

وفيها في شعبان توفي الشيخ عز الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ونشأ بها ثم سار إلى الموصل مع والده وأخوته، وسمع بها من أبي الفضل عبد الله بن أحمد الخطيب الطوسي، ومن في طبقتة، وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل وسمع من الشيخين يعيش بن صدقة، وعبد الوهاب بن علي الصوفي وغيرهما، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة، ثم عاد إلى الموصل وانقطع في بيته للتوفر على العلم، وكان إماما في علم الحديث، وحافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرا بأنساب العرب وأخبارهم، صنف في التاريخ كتابا كبيرا سماه الكامل، وهو المنقول منه غالب هذا المختصر ابتداء فيه من أول الزمان إلى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وله كتاب أخبار الصحابة في ست مجلدات، واختصر كتاب الانساب للسمعاني وهو الموجود في أيدي الناس دون كتاب السمعياني، وورد إلى حلب في سنة ست وعشرين وستمائة ونزل عند الطواشي طغريل الأتابك بحلب، فأكرمه إكراما زائدا، ثم سافر إلى

دمشق سنة سبع وعشرين، ثم عاد إلى حلب في سنة ثمان وعشرين، ثم توجه إلى الموصل فتوفي بها في التاريخ المذكور، ونسبة الجزيرة إلى ابن عمر، وهو رجل من أهل برقعيد من أعمال الموصل اسمه عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه.

ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وستائة

في هذه السنة في المحرم توفي شهاب الدين طغريل الأتابك بحلب.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل من مصر

إلى قتال كيقباذ ملك بلاد الروم

في هذه السنة وقع من كيقباذ بن كيخسرو، ملك بلاد الروم التعرض إلى بلاد خلاط، فرحل الملك الكامل بعساكره من مصر، واجتمعت عليه الملوك من أهل بيته، ونزل شمالي سلمية في شهر رمضان من هذه السنة، ثم سار بجموعه ونزل على النهر الأزرق في حدود بلد الروم، وقد ضرب في عسكره ستة عشر دهليزا، لستة عشر ملكا في خدمته منهم أخوته: الملك الأشرف موسى صاحب دمشق، والملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر، والصالح اسماعيل أولاد الملك العادل، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين، كان قد أرسله ابن أخيه الملك العزيز صاحب حلب مقدما على عسكر حلب إلى خدمة السلطان الملك الكامل، والملك الزاهر صاحب البيرة داود بن السلطان صلاح الدين، وأخوه الملك الأفضل موسى صاحب سميساط ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد ملكها بعد أخيه الملك الأفضل علي، والملك المظفر محمود صاحب حماة

ابن الملك المنصور محمد، والملك الصالح أحمد صاحب عيتاب ابن الملك الظاهر صاحب حلب، والملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن محمد بن شيركوه، وكان قد حفظ كيقباز ملك بلاد الروم الدربندات بالرجال والمقاتلة، فلم يتمكن السلطان من الدخول إلى بلاد الروم من جهة النهر الأزرق، وأرسل بعض العسكر إلى حصن منصور وهو من بلاد كيقباز فهدموه، ورحل السلطان وقطع الفرات، وسار إلى السويداء، وقدم جاسته تقدير ألفين وخمسة فارس مع الملك المظفر صاحب حماة، فسار الملك المظفر بهم إلى خرتبرت، وسار كيقباز ملك الروم إليهم واقتتلوا فانهمز العسكر الكاملي، وانحصر الملك المظفر صاحب حماة في خرتبرت مع جملة من العسكر، وجد كيقباز في حصارهم والملك الكامل بالسويداء، وقد أحس من الملوك الذين في خدمته بالمخامرة والتقاعد، فإن شيركوه صاحب حمص سعى إليهم، وقال إن السلطان ذكر أنه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من أهل بيته عوض ما بأيدهم من الشام، ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم وعلم الملك الكامل بذلك، فما أمكنه التحرك إلى قتال كيقباز لذلك ودام الحصار على الملك المظفر صاحب حماة، فطلب الأمان فأمنه كيقباز، ونزل إليه الملك المظفر فأكرمه كيقباز وخلع عليه ونادمه وتسلم كيقباز خرتبرت وأخذها من صاحبها، وكان من الأرتقية قرابيب أصحاب ماردين، وكان قد دخل في طاعة الملك الكامل، وصارت خرتبرت من بلاد كيقباز، وكان نزول المظفر صاحب حماة من خرتبرت يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة، وأقام عند كيقباز يومين، ثم أطلقه وسار من عنده لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ووصل بمن معه إلى الملك الكامل وهو بالسويداء من بلاد آمد ففرح به، وقوى نفرة السلطان الملك الكامل يومئذ من الناصر داود صاحب الكرك، فألزمه بطلاق بنته فطلقها الناصر داود، وأثبت الملك الكامل طلاقها منه.

وفي هذه السنة استتم بناء قلعة المعرة، وكان قد أشار سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني على الملك المظفر صاحب حماة ببنائها، فبناها وتمت الآن وشحنها بالرجال والسلاح ولم يكن ذلك مصلحة، لأن الحلبيين حاصروها فيما بعد، وأخذوها وخربت المعرة بسببها.....

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

والملك الكامل بالبلاد الشرقية وقد انثنى عزمه عن قصد بلاد الروم للتخاذل الذي حصل في عسكره، ثم رحل وعاد إلى مصر، وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده.

وفيها: توفي الملك الزاهر داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين، وكان قد مرض في العسكر الكامي، فحمل إلى البيرة مريضاً وتوفي بها، وملك البيرة بعده ابن أخيه الملك العزيز محمد صاحب حلب، وكان الزاهر المذكور شقيق الظاهر صاحب حلب.

وفيها توفي القاضي بهاء الدين بن شداد في صفر، وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة، وصحب السلطان صلاح الدين وكان قاضي عسكره، ولما توفي صلاح الدين كان عمر القاضي المذكور نحو خمسين سنة، ونال القاضي بهاء الدين المذكور من المنزلة عند أولاد صلاح الدين وعند الأتابك طغريل ما لم ينلها أحد، ولم يكن في آبائه من اسمه شداد، بل لعل ذلك في نسب أمه فاشتهر به، وغلب عليه، وأصله من الموصل، وكان فاضلاً ديناً، وكان اقطاعه على الملك العزيز ما يزيد على مائة ألف درهم في السنة.

وفيها: لما سارت الملوك إلى بلادهم من خدمة الملك الكامل، وصل الملك المظفر صاحب حماة ودخلها لخمس بقين من ربيع الأول من هذه

السنة، واتفق مولد ولده الملك المنصور محمد بعد مقدمه بيومين في الساعة الخامسة من يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول من هذه السنة، أعني سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فتضاعف السرور بقدم الوالد والولد، قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد قصيدة طويلة في ذلك فمنها:

غد الملك محروس الذرى والقواعد
باشرف مولود لاشرف والذ
حينابه يوم الخميس كأنه
خميس يبد للناس في شخص واحد
وسميته باسم النبي محمد
وجدينه فاستوفى جميع المحامد

أي باسم جديه الملك الكامل محمد والد والدته، والملك المنصور محمد صاحب حماة والد والده ومنها:
كأنى به في سدة الملك جالسا
وقد ساد في أوصافه كل سائد
ووافق من أبنائه وبينهم
بأنجم سعد نورها غير خامد
إلا أيها الملك المظفر دعوتي
ستوري بهازندي ويشد ساعدي
هنيئالك الملك الذي بقدمه
ترحل عنا كل هم فعاد

وفيها: لما تفرقت العساكر الكاملية قصد كيقباذ بن كيخسرو صاحب بلاد الروم حران والرها وحاصرهما واستولى عليهما وكانا للسلطان الملك الكامل.

وفيها: توفي بالقاهرة القاسم بن عمر بن علي الحموي، المصري الدار،

المعروف بابن الفارض، وله أشعار جيدة منها قصيدته التي عملها على طريقة الفقراء وهي مقدار ستائة بيت.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وستائة

في هذه السنة سار الناصر داود من الكرك إلى بغداد ملتجئاً إلى الخليفة المستنصر، لما حصل عنده من الخوف من عمه الملك الكامل، وقدم إلى الخليفة تحفا عظيمة وجواهر نفيسة، فأكرمه الخليفة المستنصر، وخلع عليه وعلى أصحابه، وكان الناصر داود يظن أن الخليفة يستحضره في ملأ من الناس، كما استحضر مظفر الدين صاحب إربل، فلم يحصل له ذلك، وألح في طلب ذلك من الخليفة، فلم يجبه.....

وكان الخليفة متوقفاً على استحضر داود رعاية لخاطر الملك الكامل، فجمع بين المصلحتين واستحضره ليلاً، ثم عاد الملك الناصر إلى الكرك.

وفي هذه السنة: سار السلطان الملك الكامل من مصر إلى البلاد الشرقية، واسترجع حران والرها من يد كيقباز صاحب بلاد الروم، وأمسك أجناد كيقباز ونوابه الذين كانوا بهما وقيدهم وأرسلهم إلى مصر، فلم يستحسن ذلك منه، ثم عاد الملك الكامل إلى دمشق، وأقام عند أخيه الملك الأشرف حتى خرجت هذه السنة.....

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وستائة

فيها عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية.

ذكر وفاة الملك العزيز صاحب حلب

وفي هذه السنة كان قد خرج الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر

غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى حارم للصيد ورمى البندق، واغتسل بماء بارد فحم ودخل إلى حلب وقد قويت به الحمى، واشتد مرضه وتوفي في ربيع الأول من هذه السنة، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة وشهوراً، وكان حسن السيرة في رعيته، ولما توفي تقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد، وعمره نحو سبع سنين، وقام بتدبير الدولة شمس الدين لؤلؤ الأرميني، وعز الدين عمر بن مجلي، وجمال الدولة إقبال الخاتوني والمرجع في الأمور إلى والدة الملك العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين كيقباز بن كيخسرو صاحب بلاد الروم، وملك بعده ابنه غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق.

وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف، وكان ابتداءها ما فعله شيركوه صاحب حمص لما قصد الملك الكامل بلاد الروم، فاتفق الملك الأشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون أخت الملك الكامل، ومع باقي الملوك على خلاف الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماة، فلما امتنع تهدده الملك الأشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه، فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق، وحلف للملك الأشرف ووافق على قتال الملك الكامل، وكاتب الملك الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم، واتفق معه على قتال أخيه الملك الكامل إن خرج من مصر، وأرسل الملك الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك: إنك إن وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق، وزوجتك بابنتي، فلم يوافق الناصر على ذلك لسوء حظه، ورحل إلى الديار المصرية إلى خدمة الملك الكامل، وصار معه على ملوك الشام، فسر به للملك الكامل وجدد عقده على ابنته عاشور التي طلقها منه، وأركب الناصر داود بسناجق

السلطنة ووعدته انه ينتزع دمشق من الملك الأشرف أخيه ويعطيه إياها، وأمر الملك الكامل أمراء مصر وولده الملك العادل أبا بكر ابن الملك الكامل فحملوا الغاشية بين يدي الملك الناصر داود، وبالغ في إكرامه.

وفي هذه السنة توجه عسكر حلب مع الملك المعظم توران شاه عم الملك العزيز، فحاصروا بغراس، وكان قد عمرها الداوية بعد مافتحها السلطان صلاح الدين وخربها، وأشرف عسكر حلب على أخذها، ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب أنطاكية، ثم إن الفرنج أغاروا على ربض دريساك، وهي حينئذ لصاحب حلب، فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين، وكثر فيهم القتل والأسر، وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج، وكانت هذه الواقعة من أجل الوقائع.

وفي هذه السنة استخدم الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وهو بالبلاد الشرقية، وهي: آمد، وحصن كيفا، وحران وغيرها نائبا عن أبيه الخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي، فلإنهم بعد قتله ساروا إلى كيقباز ملك بلاد الروم وخدموا عنده، وكان فيهم عدة مقدمين مثل بركة خان وكشلوخان وصاروخان، وفرخان، وبردي خان، فلما مات كيقباز وتولى ابنه كيخسرو قبض على بركة خان وهو أكبر مقدميهم، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته، وساروا عن الروم، ونهبوا ماكان على طريقهم، فاستألمهم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، واستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له واستخدمهم.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وستمائة

وقد استحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف، وقد لحق الملك الأشرف الذرب، وضعف بسببه، وعهد بالملك إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل صاحب بصرى.

ذكر وفاة الملك الأشرف

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب، وكان قد مرض بالذرب واشتد به حتى توفي في المحرم من هذه السنة، وتملك دمشق أخوه الصالح اسماعيل بعهد منه، وكان مدة ملك الأشرف دمشق ثمان سنين وشهورا وعمره نحو ستين سنة، وكان مفرط السخاء يطلق الأموال الجلييلة النفيسة، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية، وكان سعيدا، ويتفق له أشياء خارقة للعقل، وكان حسن العقيدة وبنى بدمشق قصورا ومنتزهات حسنة، وكان منهما في اللذات وسماع الأغاني، فلما مرض ألقع عن ذلك وأقبل على الاستغفار إلى ان توفي ودفن في تربته بجانب الجامع، ولم يخلف من الأولاد إلا بتا واحدة تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وكان سبب الوحشة بينه وبين أخيه الملك الكامل، بعد ما كان بينهما من المصافاة، أن الملك الأشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها، وكانت لا توفي بما يحتاجه وما يبذله، وقت قدوم أخيه الملك الكامل إلى دمشق، وأيضا لما فتح الملك الكامل آمد وبلادها لم يزد منها شيئا، وأيضا بلغه أن الملك الكامل يريد أن ينفرد بمصر والشام، وينتزع دمشق منه، فتغير بسبب ذلك.

ولما استقر الملك الصالح اسماعيل في ملك دمشق، كتب إلى الملوك من أهله، وإلى كيخسرو صاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل، فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماة، وأرسل الملك المظفر رسولا إلى الملك الكامل يعرفه انتماءه إليه، وأنه إنما وافق الملك الأشرف خوفا منه، فقبل الملك الكامل عذره، وتحقق صدق ولائه، ووعده بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ذكر مسير السلطان الملك الكامل إلى دمشق واستيلائه عليها وما يتعلق بذلك

لما بلغ الملك الكامل وفاة أخيه الملك الأشرف سار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك، وهو لا يشك ان الملك الكامل يسلم إليه دمشق لما كان قد تقرر بينهما، وأما الملك الصالح اسماعيل فإنه استعد للحصار، ووصل إليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص، ونازل الملك الكامل دمشق، وأخرج الملك الصالح اسماعيل النفاطين فأحرق العقبة جميعها وما بها من خانات وأسواق، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجاله يزيدون علي خمسين رجلا، نجدة للصالح اسماعيل، وظفر بهم الملك الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم، وحال نزول الملك الكامل على دمشق أرسل توقيعا للملك المظفر صاحب حماة بسلمية، فتسلمها الملك المظفر، واستقرت نوابه بها، وكان نزول الملك الكامل على دمشق في جمادى الأولى من هذه السنة في قوة الشتاء، ثم سلم الملك الصالح اسماعيل دمشق إلى أخيه الملك الكامل، وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافا إلى بصرى، وكان قد ورد من الخليفة المستنصر محيي الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين ابن الجوزي رسولا للتوفيق بين الملوك، فتسلم الملك الكامل دمشق لاحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، وكان الملك الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأمر العسكر فبرزوا لقصده حمص، وأرسل إلى صاحب حماة وأمره بالمسير إليها فبرز الملك المظفر من حماة، ونزل على الرستن، واشتد خوف شيركوه صاحب حمص وتخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلن على الملك الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك، ثم بعد استقرار الملك الكامل في دمشق لم يلبث غير أيام حتى مرض، واشتد مرضه وكان سببه إنه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام، فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورمت منها، وحصل له حمى ونهاه الأطباء عن القيء وخوفوه منه فلم يقبل وتقيأ فمات لوقتته،

وعمره نحو ستين سنة وكانت وفاته لتسع بقين من رجب من هذه السنة أعني سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكان بين موته وموت أخيه الملك الأشرف نحو ستة أشهر وكانت مدة ملكه لمصر من حين مات أبوه عشرين سنة، وكان بها نائبا قبل ذلك قريبا من عشرين سنة، فحكم في مصر نائبا وملكنا نحو أربعين سنة، وأشبه حاله حال معاوية بن أبي سفيان، فإنه حكم في الشام نائبا نحو عشرين، وملكنا نحو عشرين، وكان الملك الكامل ملكا جليلا مهيبا حازما، حسن التدبير، وأمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه، واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفى الدين بن شكر، فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده، وكان يخرج الملك الكامل بنفسه فينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل وإصلاحها، فعمرت في أيامه ديار مصر أتم العمارة، وكان محبا للعلماء ومجالستهم، وكانت عنده مسائل غريبة في الفقه والنحو يمتحن بها الفضلاء إذا حضروا في خدمته، وكان كثير السماع للأحاديث النبوية، وتقدم عنده بسببها الشيخ عمر بن دحية، وبنى له دار الحديث بين القصرين في الجانب الغربي، وكانت سوق الآداب والعلوم عنده نافقة رحمه الله تعالى، وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حموية من أكابر دولته، وهم الأمير فخر الدين ابن الشيخ، وأخوته عماد الدين وكمال الدين ومعين الدين أولاد الشيخ المذكور، وكل من أولاد الشيخ المذكور حاز فضيلتي السيف والقلم، فكان يباشر التدريس ويتقدم على الجيش.

ولما مات السلطان الملك الكامل بدمشق كان معه بها الملك الناصر داود صاحب الكرك، فانفقت آراء الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وهو حينئذ نائب أبيه بمصر، فحلف له جميع العسكر، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وتقدمت الأمراء إلى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق

وهددوه إن أقام، وتأخر مع الجواد يونس بعض العسكر ومقدمهم عماد الدين ابن الشيخ، وبقي يباشر الأمور مع الملك الجواد.

ولما بلغ شيركوه صاحب حمص وفاة الملك الكامل فرح فرحا عظيما، وأتاه فرج ما كان يطمع نفسه به ، وأظهر سرورا عظيما ولعب بالكرة على خلاف العادة وهوفي عشر السبعين، وأما الملك المظفر صاحب حماة فإنه حزن لذلك حزنا عظيما، ورحل من الرستن، وعاد إلى حماة، وأقام فيها للعزاء، وأرسل صاحب حمص ارتجع سلمية من نواب الملك المظفر، وقطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماة فيست بساينها، ثم عزم على قطع النهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس التي بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين، وذهب ماء العاصي في أودية بجوانب البحيرة ثم لما لم يجد له الماء مسلكا عاد فهدم ماعمله صاحب حمص، وجرى كما كان أولا، وكذلك كان قد حصل لصاحب حلب ولعسكرها الخوف من الملك الكامل، فلما بلغهم موته أمنوا من ذلك.

ذكر استيلاء الحلبيين على المعرة وحصارهم حماة

ولما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة، ثم أخذ حماة من الملك المظفر صاحب حماة لموافقته الملك الكامل على قصدهم، ووصل عسكر حلب إلى المعرة وانتزعوها من يد الملك المظفر صاحب حماة، وحاصروا قلعتها وخرجت المعرة حينئذ عن ملك الملك المظفر صاحب حماة، ثم سار عسكر حلب ومقدمهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين إلى حماة بعد استيلائهم على المعرة، ونازلوا حماة وبها صاحبها الملك المظفر، ونهب العسكر الحلبي بلاد حماة، واستمر الحصار على حماة حتى خرجت هذه السنة.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة عقد لسلطان الروم غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو العقد على غازية خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب، وهي صغيرة حينئذ، وتولى القبول عن ملك بلاد الروم قاضي دوقات، ثم عقد للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب العقد على أخت كيخسرو وهي ملكة خاتون بنت كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان، وأم ملكة خاتون المذكورة بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد زوجها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بكيقباذ المذكور، وخطب لغياث الدين كيخسرو بحلب.

وفيها خرجت الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب بعد موت أبيه الملك الكامل، ونهبوا البلاد.

وفيها سار لؤلؤ صاحب الموصل، وحاصر الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بسنجار، فأرسل الملك الصالح واسترضى الخوارزمية، وبذل لهم حران والرها فعادوا إلى طاعته، واتقع مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فانهمز لؤلؤ وعسكره هزيمة قبيحة، وغنم عسكر الملك الصالح منهم شيئا كثيرا.

وفي هذه السنة جرى بين الملك الناصر داود صاحب الكرك، وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مصاف بين جينين ونابلس، انتصر فيه الملك الجواد يونس، وانهمز الملك الناصر داود هزيمة قبيحة، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة، وتمكن من دمشق ونهب عسكر الملك الناصر وأثقاله.

وفي أواخر هذه السنة ولد والدي الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك المظفر صاحب حماة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وستمائة

في هذه السنة رحل عسكر حلب المحاصر لحماة بعد مولد الملك الأفضل، وكان قد طالت مدة حصارهم لحماة وضجروا، فتقدمت إليهم ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها فرحلوا، وضاق الأمر على الملك المظفر في هذا الحصار، وانفق فيه أموالا كثيرة، واستمرت المعرة في يد الحلبيين، وسلمية في يد صاحب حمص، ولم يبق بيد الملك المظفر غير حماة وبعرين، ولما جرى ذلك خاف الملك المظفر أن تخرج بعرين بسبب قلعتها، فتقدم بهدمها فهدمت إلى الأرض في هذه السنة.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفي هذه السنة في جمادى الآخرة استولى الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل على دمشق وأعمالها، بتسليم الملك الجواد يونس، وأخذ العوض عنها: سنجار، والرقّة، وعانة، وكان سبب ذلك أن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر لما علم باستيلاء الملك الجواد على دمشق، أرسل إليه عماد الدين ابن الشيخ ليتنزع دمشق منه، وأن يعوضه عنها إقطاعا بمصر، فمال الجواد يونس إلى تسليمها إلى الملك الصالح حسبا ذكرناه، وجهاز على عماد الدين ابن الشيخ من وقف له بقصة، فلما أخذها عماد الدين منه ضربه ذلك الرجل بسكين فقتله، ولما وصل الملك الصالح أيوب إلى دمشق وصل معه الملك المظفر صاحب حماة معاضدا له، وكان قد لاقاه إلى اثناء الطريق، واستقر الملك الصالح أيوب المذكور في ملك دمشق، وسار الجواد يونس إلى البلاد الشرقية المذكورة فتسلمها.

ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه إلى مصر ليملكها، وسأله الملك المظفر صاحب حماة في منازلة حمص وأخذها من شيركوه، فبرز إلى الثنية وكان قد نازلت الخوارزمية وصاحب حماة حمص، فأرسل شيركوه مالا كثيرا وفرقه في الخوارزمية، فرحلوا عنه إلى البلاد الشرقية، ورحل صاحب حماة إلى حماة، ثم كر الملك الصالح عائداً إلى دمشق طالبا مصر، وسار من دمشق إلى خربة اللصوص وعيد بها عيد رمضان، ووصل إليه بعض عساكر مصر مقفزين.

ولما خرج الملك الصالح من دمشق جعل نائبه فيها ولده الملك المغيـث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح، وشرع الملك الصالح يكاتب عمه الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه اسماعيل المذكور يتحجج ويعتذر عن الحضور ويظهر له أنه معه، وهو يعمل في الباطن على ملك دمشق، وأخذها من الصالح أيوب، وكان قد سافر الملك الناصر صاحب الكرك إلى مصر واتفق مع الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل على قتال الملك الصالح أيوب، ووصل أيضا في هذه السنة محيي الدين ابن الجوزي رسولا من الخليفة ليصلح بين الأخوين العادل صاحب مصر والصالح أيوب المستولي على دمشق، وهذا محيي الدين هو الذي حضر ليصلح بين الكامل والأشرف، فاتفق أنه مات في حضوره في سنة أربع وثلاثين وخمس وثلاثين أربعة من السلاطين العظماء وهم: الملك الكامل صاحب مصر، وأخوه الأشرف صاحب دمشق، والعزیز صاحب حلب، وكيقباد صاحب بلاد الروم، فقال في ذلك ابن المسجف أحد شعراء دمشق:

يا إمام الهدى أبا جعفر المنـ

صوري يامن له الفخار الانيل

ما جرى من رسولك الآن محيي الـ

سدين في هذه البلاد قليل

جاء والأرض بالسلطين تزهي
وغدا والديار منهم طول
أقفر الروم والشام، ومصر
أفها مغمسل أم رسول

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وستائة

في هذه السنة في صفر سار الملك الصالح اسماعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص بجموعهما وهجموا دمشق، وحصروا القلعة وتسلمها الصالح اسماعيل، وقبض على المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب، وكان الملك الصالح أيوب بنابلس لقصد الاستيلاء على ديار مصر، وكان قد بلغه سعي عمه اسماعيل في الباطن، وكان للصالح أيوب طبيب يثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله الصالح أيوب إلى بعلبك ومعه قفص من حمام نابلس ليطالعه بأخبار الصالح صاحب بعلبك، وحال وصول الحكيم المذكور علم به صاحب بعلبك فاستحضره وأكرمه وسرق الحمام التي لنابلس، وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب المذكور بذلك، فصار الطبيب المذكور يكتب ان عمك اسماعيل قد جمع وهو في نية قصد دمشق ويطبق فيقعد الطير ببعلبك فيأخذ الصالح اسماعيل البطاقة ويزور على الحكيم إن عمك اسماعيل قد جمع ليعاضدك، وهو واصل إليك ويسرجه على حمام نابلس فيعتمد الصالح أيوب على بطاقة الحكيم، ويترك ما يرد إليه من غيره من الأخبار، واتفق أيضا ان الملك المظفر صاحب حماة علم بسعي الصالح اسماعيل صاحب بعلبك في أخذ دمشق مع خلوها ممن يحفظها، فجهز نائبه سيف الدين علي بن أبي علي، ومعه جماعة من عسكر حماة وغيرهم، وجهز معه من السلاح والمال شيئا كثيرا ليصل إلى دمشق ويحفظها لصاحبها، وأظهر الملك المظفر وابن أبي علي أنها قد اختصما، وأن ابن أبي علي قد غضب، واجتمع معه هذه الجماعة وقد

قصدوا فراق صاحب حماة لأنه يريد أن يسلم حماة للفرننج، كل ذلك خوفاً من صاحب حمص شيركوه لئلا يقصد ابن أبي علي ويمنعه، فلم تخف عن شيركوه هذه الخيلة، ولما وصل ابن أبي علي إلى بحيرة حمص قصده شيركوه وأظهر أنه مصدقه فيما ذكر، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه وأخذ ابن أبي علي معه، وأرسل من استدعى باقي أصحاب ابن أبي علي إلى الضيافة فمنهم من سمع ودخل إلى حمص، ومنهم من هرب فسلم، فلما حصلوا عنده بحمص قبض على ابن أبي علي وعلى جميع من دخل حمص من الحمويين، واستولى على جميع ما كان معهم من السلاح والخزانة وبقي يعذبهم ويطلب منهم أموالهم حتى استصفاهم، ومات ابن أبي علي وغيره في حبسه بحمص، والذي سلم وبقي إلى بعد موت شيركوه خلص، ولما جرى ذلك ضعف الملك المظفر صاحب حماة ضعفاً كثيراً.

وأما الملك الصالح أيوب فلما بلغه قصد عمه اسماعيل دمشق، رحل من نابلس إلى الغور، فبلغه استيلاء عمه على قلعة دمشق، واعتقال ولده المغيث عمر، ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الأمراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح أيوب إلى الصالح اسماعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح أيوب بالغور غير مماليكه واستأذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح الملك الصالح أيوب لا يدري ما يفعل ولاله موضع يقصده، فقصد نابلس، ونزل بها بمن بقي معه وسمع الناصر داود بذلك، وكان قد وصل من مصر إلى الكرك فنزل بعسكره وأمسك الملك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره، ولما اعتقل الصالح أيوب بالكرك تفرق عنه باقي أصحابه ومماليكه، ولم يبق منهم معه غير عدة يسيرة، ولما جرى ذلك أرسل أخو الصالح الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الملك الناصر داود، فلم يسلمه الناصر داود، فأرسل الملك العادل وتهدد الملك الناصر بأخذ بلاده فلم يلتفت إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة بعد اعتقال الملك الصالح بالكرك قصد الناصر داود القدس، وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل، فحاصرها وفتحها وخرّب القلعة وخرّب برج داود أيضا، فإنه لما خربت القدس أولا لم يخرب برج داود فخربه في هذه المرة.

وفي هذه السنة توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص ابن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذي، وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة، لأن صلاح الدين ملكه حمص سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، بعد موت أبيه محمد بن شيركوه، وكان عمره يومئذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان شيركوه المذكور عسوقا لرعيته، وملك حمص بعده ولده الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه.

وفي هذه السنة استولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار، وأخذها من الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل.

ذكر خروج الملك الصالح أيوب من الاعتقال والقبض على أخيه الملك العادل صاحب مصر وملك الملك الصالح أيوب ديار مصر

وفي هذه السنة في أواخر رمضان أفرج الملك الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب، واجتمعت عليه مماليكه، وكتبه إليها زهير، وسار الناصر داود وصحبته الصالح أيوب إلى قبة الصخرة، وتحالفا بها على أن تكون ديار مصر للصالح، ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، ولما تملك الصالح أيوب لم يف للناصر بذلك وكان يتأول في يمينه أنه كان مكرها، ثم سارا إلى غزة، فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وعلى والدته ذلك،

وبرز بعسكر مصر، ونزل على بلييس لقصد الناصر داود والصالح أخيه، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام، وأن يستأصلهما فسار الصالح اسماعيل بعساكر دمشق، ونزل الفوار، فبينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما، إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية، ومقدمهم أييك الأسمر، وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه، وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه، فأتاه فرج لم يسمع بمثله، وسار الملك الصالح أيوب والملك الناصر داود إلى مصر، وبقي في كل يوم يلتقي الملك الصالح فوج بعد فوج من الأمراء والعسكر، وكان القبض على الملك العادل ليلة الجمعة ثامن ذي القعدة من هذه السنة، فكانت مدة ملكه نحو سنتين، ودخل الملك الصالح أيوب إلى قلعة الجبل بكرة الأحد لست بقين من الشهر المذكور، وزينت له البلاد وفرح الناس بمقدمه، وحصل للملك المظفر صاحب حماة من السرور والفرح بملك الملك الصالح مصر مالا يمكن شرحه، فإنه مازال على ولائه حتى أنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماة وبلادها، ولما استقر الملك الصالح أيوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود، حصل عند كل واحد منهما استشعار من صاحبه، وخاف الناصر داود ان يقبض عليه، فطلب دستورا، وتوجه إلى بلاده الكرك وغيرها.

ذكر وفاة صاحب ماردين

في هذه السنة، وقيل في سنة ست وثلاثين، توفي ناصر الدين أرتق أرسلان بن ايلغازي ابن البي بن تمر تاش بن ايلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان يلقب الملك المنصور، وملك المذكور ماردين بعد أخيه حسام الدين يولوق أرسلان حسبما تقدم ذكره في سنة ثمانين وخمسة، وبقي أرتق أرسلان متغلبا عليه مملوك والده البقش حتى قتله أرتق

أرسلان في سنة إحدى وستمائة، واستقل أرتق أرسلان بملك ماردين حتى توفي في هذه السنة، ولما مات الملك المنصور أرتق أرسلان ملك بعده ابنه الملك السعيد نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان المذكور حتى توفي في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده في السنة المذكورة ابنه الملك المظفر قرا أرسلان بن غازي بن أرتق أرسلان، وكانت وفاة المظفر قرا أرسلان المذكور سنة إحدى وتسعين وستمائة ظنا، ثم ملك بعده ولده الأكبر شمس الدين داود بن قرا أرسلان سنة وتسعة أشهر، ثم توفي وملك بعده أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا أرسلان في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ظنا، ونقلت وفيات المذكورين حسبما هو مشروح من تقويم رجل من ماردين ذكر فيه تواريخ بني أرتق، ولم أتحقق صحة ذلك، وسنذكر في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وفاة الملك المنصور غازي المذكور في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة إن شاء الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة

في هذه السنة قبض الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل بعد استقراره في ملك مصر على أيك الأسمر، مقدم المماليك الأشرفية وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه، وأودعهم الحبوس، وأخذ في إنشاء مملكته، وشرع الملك الصالح أيوب المذكور من هذه السنة في بناء قلعة الجزيرة واتخذها مسكنا لنفسه.

وفيهما نزل الملك الحافظ أرسلان شاه ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب عن قلعة جعبر، وبالس، وسلمهما إلى أخته ضيفة خاتون صاحبة حلب، وتسلم عوض ذلك أعزاز وبلادها معها تساوي ما نزل عنه، وكان سبب ذلك أن الملك الحافظ المذكور أصابه فالج، وخشي من أولاده،

وتغلبهم عليه، ففعل ذلك لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لا يمكنهم التعرض إليه.

وفي هذه السنة كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال فانهمز الحليون هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور، واستولى الخوارزميون على أثقال الحليين وأسروا منهم عدة كثيرة، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه منهم بماله، فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان، وكثر عيشتهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب، وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب، واستعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ذكره، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران وماعها، بعد أن أخرجوا بلد حلب.

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران، وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول، ثم إلى تل اعزاز، ثم سمرين، ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدونه، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم، وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحليين، فاجتمع الحليون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية، واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل